جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

# رسائل النساء منذ العصر الإسلامي حتى العصر العباسي

## دراسة موضوعية فنية دلالية على العصر

الدكتورة

فاطمة البيومي محمود سلامة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالمنصورة

العدد التاسع عشر

للعام ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

الجزء الخامس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٥م

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

صدق الله العظيم سورة الكهف (١٠)

# المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، وعليه نتوكل، وهو رب العرش العظيم.

الحمد لله خلق الإنسان، علمه البيان، وأصلي وأسلم على خير خلقه وخاتم رسله سيدنا محمد ﷺ

وبعد :

فهذا بحث أعددته عن (رسائل النساء منذ العصر الإسلامي حتي العباسي، دراسة موضوعية فنية دالة على العصر) ٠

دفعني لاختياري هذا الموضوع أسباب عديدة أهمها:-

ــ أن الدراسات الأدبية في العصرين المذكورين تكاد تخلو من الحديث المتخصص عن رسائل النساء، فمع كثرة ما كتب عن الأدب وتاريخه لم أقف على بحث واحد يخص أدب الرسائل عند المرأة حتى نهاية العصر العباسي، على الرغم مما وقع تحت يدي من زاد طيب لها في هذا الفن، على مختلف اتجاهاته وتنوع أغراضه، فلقد بلغ ما حصلت عليه من رسائل لها منذ العصر الجاهلي وحتى نهاية العصر العباسي نحو من ثمانين رسالة، مما يؤهل لأن يكون مادة للكشف والإبانة، عن اتجاهاته واستجلاء سماته وخصائصه التعبيرية عندها، ولم أقف على بحث يخص أدبها عامة اللهم غير بحثين أحدهما للدكتور خالد الحلبوني بعنوان (أدب المرأة في العصر العباسي وملامحه الفنية) نشر بمجلة دمشق المجلد ٢٦، العدد الثالث والرابع لسنة ٢٠١٠م غير أن هذا البحث يتناول أدب المرأة العباسية بعامة من ناحية، ولم يرد فيه سوى خمس رسائل وأربع توقيعات، وثانيهما بعنوان( تأملات في رسائل الأدباء) للأستاذ عبد اللطيف الأرناؤوط ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة،٢٠١٢م. وقصر الكاتب حديثه فيه على رسائل لأدباء في العصر الحديث كعبدالعزيز التويجري، طه حسين، الرافعي، وغيرهم الكثير.

وانتابني شعور بالعجب حين وجدت مؤلفات جادة مستقيمة عن النثر العربي في مختلف عصوره، لم تشر من قريب أو بعيد إلى أدب الرسائل عند المرأة. من هذه المؤلفات:

١- الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، للدكتور مصطفى الشكعة، فقد تخطت صفحاته الثماني مائة، وتناول خلاله المؤلف النثر بمختلف فنونه حتى نهاية العصر العباسي، ولم يتعرض فيه لأدب الرسائل عند المرأة بل ولم يمثل فيه ولو برسالة لها .

٢- النثر الفني حتى نهاية القرن الخامس الهجري د/ زكي مبارك.

٣- الفن ومذاهبه في النثر العربي. د/شوقي ضيف.

٤- في الأدب الحديث. د/عمر الدسوقي بجزئيه .

٥- الفنون الأدبية وأعلامها في النثر الأدبي. أنيس المقدسي.

فيكاد هذا الفن عند المرأة في هذه المؤلفات وغيرها أن يكون نسيا منسيا، وكأن لم يكن لها من الرسائل ما يرشح لعمل بحث عنها يؤهل لاستجلائه ودراسته واستكناه مراميه، فقد أرسلت المرأة الرسائل وأجابت هي على رسائل.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة وقائمة بأهم المصادر والمراجع.

- في التمهيد سلطت الضوء على مفهوم الرسالة، وقلة ما أثر عن المرأة من رسائل في العصر الجاهلي، وتعليل ذلك.

- وفي الفصل الأول درست رسائل النساء في العصر الإسلامي دراسة موضوعية.

- وفي الفصل الثاني درست رسائل النساء في العصرالعباسي دراسة موضوعية.

- في الفصل الثالث درست رسائل النساء في العصرين المذكورين دراسة فنية دلالية على بعض سمات العصر، مع عقد موازنات حول بعض الاتجاهات في الرسائل، بما يكشف عن طبيعة العصرين.

هذا وأضع بين يدي القارئ هذه الدراسة التي تكشف عن مصدر مهم للحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية ودور المرأة فيها، وما حظيت به من حرية كفلها لها الإسلام، استطاعت في ظلها أن تعرب عن رأيها، وأن تعرض قضيتها في غير حرج، وتكاتب في غيرملام.

مع دعائي أن يحظى هذا العمل بالقبول من القارىء الكريم وأن يجد فيه النفع والإفادة .

## التمهيد
## أدب الرسائل مفهوما وتأصيلا

للمرأة العربيه مكانتها السامية قديما وحديثا، زادت سموا وتأصيلا في ظل ديننا الإسلامي الحنيف، ورأيها المعتبر في كثير من الأمور، وقد سطّر التاريخ الإسلامي للمرأة مواقف مشرفة نبيلة تستحق الإشادة والتسجيل.(١)

وفرضت المرأة العربيه نفسها على الساحة كشاعرة وخطيبة وكاتبة في دواوين الخلافة كما هو الشأن في الأندلس.

ووقفنا لها على عدد كبير من الرسائل على تعدد اتجاهاتها وموضوعاتها عبرت خلالها عن الكثير من العواطف والأحاسيس الذاتية وموقفها حيال بعض الحوادث السياسية والاجتماعية، مما حفزني إلى دراسة رسائلها وبيان خصائصها الفنية.

وقبل الخوض في الحديث عن الرسائل النسائية تجدر الإشارة إلى مفهوم الرسالة.

فقد اشتق لفظ الرسالة من المادة اللغوية "رسل"وهو القطيع من كل شيء، ثم تطور هذا الاستعمال الحسي إلى الاستعمال المعنوي فصارت تطلق ويراد بها التوجيه، والاسم الرسالة والرّسالة، ثم تطور هذا المفهوم اللفظي ليدل على كل كلام يراسل به من بعيد.(٢)

---

(١) دور السيدة خديجة رضي الله عنها في مؤازرة النبي ﷺ بمالها ورأيها – موقف أم سلمة رضي الله عنها وإشارتها على النبي ﷺ في صلح الحديبية حين أمر الصحابة بالتحلل من الإحرام بأن يبدأ هو بالتحلل وهنا امتثل الصحابةﷺ لأمر النبيﷺ.

(٢) لسان العرب . ابن منظور جـ٣ . ط دار المعارف مادة رسل.

والرسالة في المفهوم الأدبي تطلق على "ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل، في غرض من الأغراض، ويوجهه إلى شخص آخر، ويشمل ذلك الجواب والخطاب"(١) يقول ابن بسام: "فإن ثمرة هذا الأدب، العالي الرتب، رسالة تنثر وترسل ، وأبيات تنظم وتفصّل، تنثال تلك انثيال القطار على صفحات الأزهار، وتتصل هذه اتصال القلائد على نحور الخرائد"(٢) .

ويرى أبوهلال العسكري أن الرسالة تقابل الخطبة، ولا فرق بينهما إلا في طريقة الآداء، فبينما نجد الخطبة تلقى شفاها على مسامع الناس وجمع منهم، نجد الرسالة تحبر– غالبا– ثم يبعث بها، ومن السهل (على هذا المفهوم) أن تجعل الخطبة رسالة والرسالة خطبة(٣)وعلى هذا فقد تكون الرسالة شَفَوِيَّةٌ عبارة عن كَلاَمٌ يَبُثُّهُ شَخْصٌ مَّا لِيَنْقُلَهُ شَفَوِيّاً إِلَى شَخْصٍ آخَرَ وقد تكون رسالة مكتوبة.

وكان أدباء المشرق وتبعهم في ذلك أدباء المغرب يطلقون لفظ رسالة ــ أحيانا ــ على القصائد والمقطعات الشعرية التي ينظمها الشاعر على شكل خطاب، موجه إلى صديق أو غيره في أي موضوع، يبدو ذلك واضحا من الأخبار والنصوص التي انتهت إلينا، من ذلك ما جاء في رسالة كعب ابن زهيرإلى أخيه بجير حين علم بإسلامه:

ألا أبلغا عني بجيرا رسالة ∴ فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا ؟
سقاك بها المأمون كأسا رويّة ∴ فأنهلك المأمون منها وعلكا
ففارقت أسباب الهدى واتبعته ∴ على أي شئ ويب غيرك دلّكا(٤)

وهذا الشاعر الأرجاني يكتب إلى الحكيم أبي القاسم رسالة قال فيها:

كتبت ولي عين إليك مشوقة ∴ إلى وجهك الوضاح طال انتظارها

---

(١) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري/ فايز عبدالنبي القبيسي / ٧٨ / دارالبشير / عمان الأردن / الأولى ١٤٠٩هـ١٩٨٩م
(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني / تحقيق إحسان عباس / ح٢ ، ص٥٠٠ / الأولى ١٩٩٧ نقلا عن الزخيرة ق١ م ١ ص١١
(٣) الصناعتين أبو هلال العسكري/ علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم/ المكتبة العصرية / بيروت ١٤١٩هـ ١٣٦/ بتصرف٠
(٤) ديوان كعب ابن زهير/ شرح الأستاذ/ علي فاعور ص٥دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

وأقصى منى إنسانها هو أنه ∴ رجاء التلاقي من سوادي مدادها
فقد حسدت عيني كتابي صبابة ∴ تقول إذا الأشواق جد اشتدادها
أمن بعد أيام يراك سواده ∴ وصولا ويبقى لا يراك سوادها[1]

**ومن ذلك ماجاء في إحدى قصائد ابن زيدون التي وجهها من السجن إلى أبي الحزم بن جهور ، وفيها يشير إلى كثرة رسائله الشعرية إليه قائلا:**

أفي العدل أن وافتك تترى رسائلي ∴ فلم تتركن وضعا لها في يدي عدل[2]

**وقد درج بعض الدارسين والباحثين ــ المعاصرين ــ على استعمال هذا المفهوم في دراسة الرسائل من ذلك دراسة الأستاذ "عدنان عبدالنبي البلداوي" تحت عنوان" مضمون الرسائل الشعرية في الجاهلية والإسلام دراسة ونقد وتحليل" في مئتين وستين صحيفة من القطع المتوسط مطبعة الأديب البغدادية سنة ١٩٨٣م، وأضواء على أدب الرسائل عند المرأة عبد اللطيف الأرناؤوط ، ص٩، مجلة قوافل العدد٣ مارس ١٩٩٤م.**

**ولم يغب عن فكر الباحث حين شرع في معالجة هذا البحث مفهوم الرسالة في المصطلح الأدبي وأنها فن من أهم فنون النثر وليسمح لي القارئ أن أتجاوز هذا المفهوم وأتّبعت منهج الخلط بين الرسائل بالمعنى اللغوي والرسائل بالمفهوم الأدبي فأجمع بين الرسائل الشعرية والرسائل النثرية، وذلك لثلاثة أسباب الأول : أنّ رسائل المرأة النثرية لا تنهض وحدها لعمل بحث متخصص تتضح فيه الرؤية الفنية، والخصائص الشعورية والقيم التعبيرية لهذه الرسائل .**

**الثاني: أن أغلب ما أثر عن المرأة من رسائل ومكاتبات نثرية كانت مزيلة بالأشعار ضاع الجزء النثري من معظمها وبقي الجزء الشعري ،وقد نصت على ذلك مصادر البحث التي حوت هذه الرسائل، وإن لم تدرس هذه الرسائل بهذا الصفة ستظل طي مصادرها، ولن يتسنى لنا الوقوف على دلالاتها ومضامينها**

---

(١) ديوان الأرجاني ، ناصح الدين أحمد بن محمد المجلد الأول / ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ / شرح قدري مايو / دار الجيل بيروت / الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م .
(٢) ديوان ابن زيدون، شرح د/ يوسف فرحات، ص٢٤١/ دار الكتاب العربي ، بيروت ، الثانية ١٤١٥هـ ١٩٩٤م .

**الفنية والموضوعية، وكما قال أبو علي الحاتمي: "والمنظوم أرشق في الأسماع، وأعلق في الطباع ، وأبقى مياسم وأذكى مناسم، وأخلد عمرا"(١).**

**الثالث: أن هذه الرسائل بهذه الصفة تعكس واقعا اجتماعيا لحياة الناس في العصرين محط الدراسة ومن ثم فدراستها ذات فائدة معتبرة.**

**ولما كانت "الرسائل الشعرية "قد شاعت على لسان المرأة في العصر العباسي ــ خاصة ــ عني بها الباحث لأنها تمثل ظاهرة أدبية لديها، وأدب الرسائل عالم حواري تظهر فيه آثار التفاعل التخاطبي كأتم مايكون الظهور.(٢)**

**وللرسائل قيمة كبرى في الأدب والتاريخ، وغايات جلى حققتها فمن بين غاياتها توظيفها في تدوين الحقائق التاريخية، وهي غاية جديدة ينبغي الاهتمام بها.(٣)**

**ويرى عبداللطيف الأرناؤوط أن قيمة الرسائل وروعتها تكمن في: ــ كونها تعرفنا على الأشخاص لا على النتاج الأدبي فحسب فإننا نجد عظماءنا في رسائلهم لا يتخذون شخصية تخالف حقيقتهم(٤) .**

**كما أنها هامة جدا في كونها تكشف عن بعض الأسرار الذاتية في حياة الأديب، والعلاقات العاطفية الخاصة، والميول السياسية التي يتعذر البوح بها في أنواع الأدب الأخرى.(٥)**

**ومن خصائصها : إمكانية التعبير عن الخواطر والمشاعر حين يعجز اللسان ابتداء عن الإفصاح عنها والبوح بها، كخوف الرقباء وتسلط الأقوياء**

---

(١) حلية المحاضرة /محمد بن الحسن بن مظفر الحاتمي أبو علي ج١/ ص١/ الكتاب مرقم آليا غي موافق للمطبوع / المكتبة الشاملة

(٢) مقال أدب الرسائل في التراث العربي/بقلم صالح بن رمضان عدد٢٨/يونيو١٩٩٨م بتصرف

(٣) النثر الكتابي في العصر الأموي /محمد فتوح أحمد ١٨،١٩ مكتبة الشباب المنيرة القاهرة ١٩٨٧م

(٤) تأملات في رسائل الأدباء ٢٣/بتصرف منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة،٢٠١٢م

(٥) أضواء على أدب الرسائل عند المرأة عبد اللطيف الأرناؤوط / مجلة قوافل العدد٣ مارس ١٩٩٤م

وإفساد الوشاة، فهذه فضل قد اجتمعت وسعيد بن حميد في مجلس فأخذت دواة ودرجا وكتبت إليه[١]:

بثثت هواك في جسدي وروحي ∴ فألف فيهما طمعا بياسي

فكتب إليها:

كفاك الله شر اليأس إني ∴ لخوف اليأس أبغض كل آسي

وكما في رسالة المغني إلى القينة فى مجلس الواثق وسيأتي إيراد القصة في الدراسة الفنية إن شاء الله .

ويقول الأستاذ الأرناؤوط عن الأدب النسائي عند المرأة " وبالنسبة للأدب النسائي، ففي الأدب القديم لم نجد أدباً نسائياً يّتسم بحرية التعبير والجرأة في رسم المشاعر الذاتية في مجال

الحب، إلا ما أُثر عن شاعرات من الجواري أو ما روي عن ولادة بنت المستكفي، وكانت ابنة ملك تجاوزت في شعرها قيود المجتمع وكتبت متحررة من الخوف الذي تحس به المرأة من الإفصاح والصراحة".[٢]

وأخالف الأستاذ الأرناؤوط فيما ذهب إليه، إذ بالمسح والاستقصاء للكثير من المصادر القديمة تبين أن للمرأة عددا كثيرا من الرسائل، يكشف عن الحرية في التعبير والقدرة على رسم المشاعر والأحاسيس، وهذا القدر كفيل بتصحيح الصورة المغلوطة لدى الكاتب عن الأدب النسائي.

كما أن الأستاذ الأرناؤوط يناقض نفسه، حين نجده يقول في مقال آخر: "... وحفلت كتب الأدباء بكثير من الرسائل الشعرية التي كان يتبادلها العشاق، وكان بعضها من إبداع النساء، إذ تظهر فيها المرأة مشاعرها الخفية والصريحة نحو من تحب وكتب التراث حافلة بهذا اللون من الأدب الذي يثبت مدى الحرية الممنوحة للمرأة في مسيرة التاريخ العربي"[٣]

---

(١) الإماء الشواعر أبو الفرج الأصفهاني١٥/ مكتبة المصطفى الكترونية/ التصنيف تراجم الشعراء /النوعية /Text

(٢) السابق / ٤٦

(٣) السابق / ٩

والرسالة من حيث بناؤها الفني تبنى على ثلاثة عناصر البداية أوالمقدمة، ثم الصدر ثم النهاية. وكل من هذه العناصر له مقوماته وطابعه الخاص، ففي البداية يكون الخطاب موجها إلى المرسل إليه، وفي الوسط أو متن الرسالة يكون الموضوع الذي أنشئت من أجله ثم تكون النهاية في صورة ختام لها وتمثل آخر ما انتهى إليه يراع الكاتب.

وإذا تتبعنا مسيرة رسائل النساء في العصر الجاهلي نجد أن موروث المرأة من هذا الفن ضئيل، بل لا يخطئنا الصواب حين نقرر أن محصلة الرسائل عامة قليلة في هذا العصر لقلة شيوع الكتابة آنذاك من ناحية، وعدم ميلهم إلى تدوين الشعر وسائر فنون الأدب من ناحية أخرى، وضآلة القدرالممنوح للمرأة من الحرية من ناحية ثالثة. فقد ضاع أكثره ولم يبق منه غير نتفٍ لا تؤهل لاستخلاص رأي أو توضيح سمة، بيد أنها بطبيعة الحال تعد إرهاصا لوجود هذا الفن في العصر الإسلامي وما تلاه .

فقد أثر عن الجاهليين من الرسائل ما يصور الصراع القبلي، وما تقوم به المرأة ــ أحيانا ــ من إشعال نيران الحرب، من ذلك ما روي من أن سبب نشوب حرب "البسوس " والتي استمر أوارها أكثر من أربعين سنة ــ هي: البسوس بنت منقذ التميمية، والبسوس خالة جساس بن مرة ابن ذهيل الشيباني، جاءت ونزلت على ابن أختها ،وكان كليب بن وائل زوجا لأخته فسألها ذات مرة هل تعلمين على الأرض أصح مني ذمة ، فسكتت ثم أعادها عليها مرارا فقالت: نعم : أخي جساس وندمانه ابن عمه عمرو المزدلف بن أبي ربيعة بن ذهيل بن شيبان، فأوغر ذلك صدر كليب وكان للبسوس ناقة خوارة ومعها فصيل لها فلما خرج كليب غاضبا من قول زوجته رأى فصيل الناقة فرماه بقوسه فقتله ثم إن كليبا قد مرت به إبل جساس وبها ناقة خالته فأمر كليب غلامه برمي ضرعها بالقوس فرماه فاختلط دمها بلبنها، وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر .. فلما علمت البسوس صاحت، وا ذلاه ! فقال جساس:اسكتي فلك بناقتك ناقة أعظم منها فأبت أن ترضى حتى صاروا لها إلى عشر، فلما كان الليل أنشأت تقول وتخاطب أخا جساس وترفع صوتها تسمع جساسا:

أبا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل ∴ فإني في قوم عن الجار أموات

ودوني أزوادي إليك فإنني ∴ محاذرة أن يغدروا ببناتي

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ ∴ لما ضيم سعد وهو جار لأبناتي

ولكـــنني أصـــبحت فـــي دار معشـــر ∴ متـى يعـد فيهـا الـذئب يعـدو علـى شـاتي

**فلما سمعها جساس قال لها: اسكتي لا تراعى: إني سأقتل جملا أعظم مـن هذه الناقة سأقتل غلاّلا وكان غلال فحل إبل كليب لم ير في زمانه مثله، وإنما أراد جساس بمقالته كليب(١)**

**وقد أدت البسوس دور الراسل والمرسل إليه في آن واحد، ولعلها قامـت بذلك لتقرع سمع جساس بهذه النبرة الحادة التي تحملها الأبيات وما تنطوي عليه من تقريع وتوبيخ، ولعلها قصدت بذلك أن توغر صدر جساس على كليـب وقـد نجحت.**

**وهاهي هند بنت النعمان تبعث رسالة إنذار للعرب بمسير جموع كسرى إلى العرب قائلة(٢):**

ألا أبلـــغ بـــني بكـــر رســـولا ∴ فقـــد جـــد الـــنفير بعـــنفقير

فليـــت الجـــيش كلـــهم فـــداكم ∴ ونفســـي والسريروذاالســـرير وذاالســـرير

كـــأني حـــين جـــد بهـــم إلـــيكم ∴ معلقـــة الـــذوائب بـــالعبور

فلـــو أنـــي أطقـــت لـــذاك دفعـــا ∴ إذن لدفعتـــه بـــدمي وزيـــري

**فلما بلغ الخبر بكر بن وائل سار هانئ بن مسعود حتى انتهى إلى ذي قار.**

**كما وقفنا – في هذا العصر– على بعض رسائل التقريع واللـوم إذا لـم يوف المحب بعهده أو اتهمته المحبوبة بالغدر. فقد كان بين رجل من عقيل اسمه صخر وابنة عم له تدعى ليلى حب ولقاء ومواثيق ثم زوّجه أبوه غيرها على كره منه، فمرض وكانت ليلى أشد به وجدا وحبا فأرسلت إليه جاريتها تقول له(٣):**

تعســـا لمـــن بغـــير ذنـــب يصـــرم ∴ قـــد كنـــت يـــا صـــخر زمانـــا تـــزعم

---

(١) أيام العرب في الجاهلية/ محمد أحمد جاد المولى /١٤٥ المكتبة العصرية – صيدا – بيروت ١٩٦١م.

(٢) انظر يوم ذي قار – المرجع السابق/ ٢٧، ٢٨– النفير:القوم ينفرون للقتال وفي المثل فـلان لا في العير ولا في النفير أي لا شأن له.

(٣) مصارع العشاق / الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بـن الحسـين القـارئ/ ٢٩٤ ، طبعـة الجوائب الأستانة/ الجزء الحادي والعشرون، وأخبار النساء/ ١٠٦ – يقال: جَمْجَـمَ الرجـل وتَجَمْجَمَ، إذا لم يبيِّن كلامه.

أنـــك مشـــغوف بنـــا متـــيم ∴ حتـــى بـــدا منـــك لنـــا المجمجـــم

وتصور بعض رسائل الجاهليين قدرةالمرأة على الاحتيال في سبيل تحقيـق مآربها وما تصبو إليه من مطلب.

فقد أورد صاحب المحاسن والأضداد في تفسير المثل في الصيف ضيعت اللبن، لقتول بنت عبدالله أنها كانت تحت رجل من قومها فطلقهـا وأنهـا رغبـت فـي أن يراجعها فأبى عليها فلما يئست خطبها رجل يقال له عامر بن شوذب فتزوجها فلمـا بنى بها، بدا للزوج الأول مراجعتها وهوى بها هوى شديدا، فجـاء يطلبهـا ويرنـو بنظره إليها ففطنت به فقالت:

أتـــــركتني حتـــــى إذا ∴ علقـــــت أبـــــيض كالشـــــطن[1]

أنشـــــأت تطلـــــب وصـــــلنا ∴ في الصـــــيف ضـــــيعت اللـــــبن

فذهبت مثلا فقال لها زوجها الأول واسمه الأشق فهل بقى شيء ؟ قالـت نعم، فاصله على جميع مالك وطلاقي فإن فاصلته تزوجتك فرضى بذلك ثم راجع نفسه فقال لها ذلك فقالت أما إذا ضننت بمالك فانطلق إلى مكان إذا أنـت تكلمـت سمع زوجي كلامي وكلامك ثم اقعد كأنك لا تشعر به وقل:

لحـــا الله بنـــت العبـــد إن وصـــالها ∴ وصـــال ملـــول لا تـــدوم علـــى بعـــل

تحـــدثني أن ســـوف تقتـــل عـــامرا ∴ كـــأن لم يكـــن في مالـــه عـــامر مثلـــي

فهيهـــات تـــزويج الـــتي تقتـــل الفتـــى ∴ إذا مـــا أبـــت يومـــا وإن كـــان مـــن أجلـــي

فتقـــتلني يومًـــا إذا هويـــت فتـــى ∴ ســـواى وإنـــي اليـــوم مـــن وصـــلها مجلـــى

فانطلق الأشق وفعل ما أمرت به فسمعه عامر فوقع في قلبه قوله وقد كان عرف حبها له فصدق ذاك ودخل عليها فطلقها وتزوجها الأشق.

وترسل السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها إلى رسـول الله ﷺ قبـل بعثته طالبة منه الاتجار لها في مالها قائلة:" قد دعاني إلى البعثة إليك ما بلغنـي من صدق حديثك وعظيم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلا

(١) المحاسن والأضاد /الجاحظ/١٨١/ الشطن : جمع أَشْطان وهو حَبْلٌ طويلٌ يُستقى به من البئر أو تُشدّ به الدابّة

من قومك" ففعل رسول الله ﷺ فلقي أبا طالب فقال له ذلك فقال إن هذا لرزق ساقه الله إليك..." (١)

وبعد .. فيصح لنا أن نقول: إن كل ما أثر عن الجاهليين من رسائل كانت شفهية يرسلها المنشئ ابتداء بغية توصيل صوته إلى المرسل إليه، أو يرسل رسولا ثقفا أمينا يؤدي مضمونها ويبلغ فحواها. و ذلك(٢): "لأن جمهرة العرب في ذلك العصر كانت متبدية فلم تكن الكتابة فيهم فاشية ولذا كانوا يعتمدون في مراسلهم على المشافهة "

وإذا نظرنا إلى الرسالة في العصر الجاهلي ــ من حيث البناء ــ فنجد أنها: تفتقد الكثير من الأسس المعروفة لبناء الرسالة، وكان عنصر الموضوع أكثر بروزا من غيره. أما من حيث الصياغة، فكانت تؤدى غالبا شعرا لمزاحمة الشعر النثر – في هذا العصر – بمنكب ضخم .

وبالنظرة المتأنية والاستقصاء التام لما أثر عن الجاهليين من رسائل النساء نجد أنها تعد قليلة بالنسبة لمجتمع شاسع، متعدد العشائر لا تخمد حروبه، ولعل طبيعة الرسالة والتي من أهم خصائصها الرغبة في إخفائها وسترها وعدم إذاعتها، كانت وراء عدم تداولها وبالتالي نسيانها. ولعل فيما أبداه الباحث يتضح السبب في عدم كثرة الرسائل في العصر الجاهلي.

(١) دلائل النبوة /أبي نعيم الأصفهاني ١٧٢/١ تحقيق محمد رواس قلعه جي وعبدالبرعباس/ دار النفائس بيروت – الثانية ١٤٠٦ هـ /١٩٨٦ م
(٢) جمهرة رسائل العرب/ أحمد زكي صفوت/ الجزء الأول/ ٧

# الفصل الأول

## اتجاهات رسائل النساء في العصر الإسلامي

- الرسائل السياسية.
- الرسائل الدينية.
- رسائل الاعتذار.
- رسائل الغرام.
- رسائل الشكوى والعتاب.
- رسائل الزهد والوعظ.

## الرسائل السياسية

ويقصد بها تلك الرسائل التي كتبت لمعالجة موضوعات سياسية أو فكرية مختلفة، فرضتها طبيعة الأحداث السياسية، وتعد الرسائل صدى للصراعات والاضطرابات والفتن الداخلية كما تعد صدى للتطور السياسي الذي وصلت إليه الدولة وعلاقتها بالدول المجاورة"[١] .

وتكثر الرسائل السياسية للمرأة في عصرصدر الإسلام، وبعد مقتل عثمان بن عفانﷺ خاصة، فقد تمخض عن هذا الحدث الجلل فتنة اشتد أوارها، وقتل فيها العديد من صحابة رسول اللهﷺ وحدث شقاق بين نفر من الصحابة وأبناء الصحابةﷺ أسفر عن تحزب وصراع دام. فمعاوية ابن أبي سفيانﷺ من جانب، وعلي بن أبي طالبﷺ من جانب آخر، وطلحة والزبيرﷺ من جانب ثالث، وكانت المطالبة بدم عثمان هي النواة التي اتكأ عليها بنو أمية لدخول معترك السياسة من مصراعه الواسع، وفي خضم هذه الفتنة قذف بالمرأة في دهاليز السياسة، فعبرت عن رأيها وأبانت عن مطالبها، فكتبت إلى ذوي الرأي وما تظن فيه العون على تحقيق مأربها وتعضيد موقفها.

وكان للسيدة عائشة رضي الله عنها القدح المعلى فيما أرسل من كتب خاصة في موقعة الجمل، فأرسلت كتبا وردت هي على كتب. وتتراوح رسائلها (رضي الله عنها) بين القصيرة ومتوسطة الطول.

---

(١) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري /فايز عبد النبي فلاح القيسي /١٢٠/دار البشير للتوزيع/ عمان الأردن / الأولى١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م.

ومن أطول رسائلها في موقعة الجمل ما كتبته إلى أهل الكوفة، تحثهم على الوحدة والاعتصام وتحكيم كتاب الله (تعالى) وتقص ما كان من خبرها مع أهل البصرة، وكيف تجرأ نفر منهم على التعدي عليها ومحاولة قتلها وفيها تقول[١]: "أما بعد.. فإني أذكركم الله (عز وجل) والإسلام، أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه، واتقوا الله واعتصموا بحبله، وكونوا مع كتابه، فإنا قدمنا البصرة، فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله بإقامة حدوده، فأجابنا الصالحون إلى ذلك، واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح، وقالوا: لنتبعنكم عثمان، ليزيدوا الحدود تعطيلاً، فعاندوا فشهدوا علينا بالكفر وقالوا لنا المنكر، فقرأنا عليهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) فأذعن لي بعضهم، واختلفوا بينهم، فتركناهم وذلك. فلم يمنع ذلك من كان منهم على رأيه الأول من وضع السلاح في أصحابي، وعزم عليهم عثمان بن حنيف إلا قاتلوني، حتى منعني الله (عزوجل) بالصالحين، فرد كيدهم في نحورهم. فمكثنا ستاً وعشرين ليلة ندعوهم إلى كتاب الله، وإقامة حدوده ــ وهو حقن الدماء أن تهراق[٢]دون من قد حل دمه ــ فأبوا واحتجوا بأشياء، فاصطلحنا عليها فخانوا وغدروا، وحافوا وحشروا،فجمع الله (عزوجل) لعثمان (ﷺ) ثأره، فأقادهم فلم يفلت منهم إلا رجل.وأردأنا[٣]الله، ومنعنا منهم بعمير بن مرثد، ومرثد بن قيس، ونفر من قيس، ونفر من الرباب والأزد. فالزموا الرضا إلا عن قتلة عثمان بن عفان حتى يأخذ الله حقه،ولا تخاصموا عن الخائنين ولا تمنعوهم، ولا ترضوا بذوي حدود الله فتكونوا من الظالمين " .

ولها كتاب قريب المضمون من هذ الكتاب أرسلته إلى رجال بأسمائهم.[٤]

كما كتبت إلى زيد بن صوحان العبدي، تناشده أن يأتي لمناصرتها أو أن يقوم بتثبيط الناس عن علي تقول فيه:" من عائشة ابنة أبي بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان، سلام عليك أما بعد : فإن

---

(١) الفتنة ووقعة الجمل . سيف بن عمر الأسدي التميمي. تحقيق أحمد راتب عمروس. دار النفائس طـ السابعة ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣. ص١٣٣

(٢) يقال هراق الماء يهريقه بفتح الهاء هراقة بالكسر ، وأصله أراق

(٣) أردأه : أعانه ، والردء بالكسر : العون.

(٤) الفتنة ووقعة الجمل / سيف بن عمر الأسدي التميمي/ ١٣٣/تحقيق / أحمد راتب عرموس/ دار النفائس ط السابعة ، ١٤١٣هـ. ١٩٩٣م

**أباك كان رأسا في الجاهلية وسيدا في الإسلام وإنك من أبيك بمنزلة المصلي من السابق يقال كاد أو لحق، وقد بلغك الذي كان في الإسلام من مصاب عثمان، ونحن قادمون عليك والعيان أشفى لك من الخبر، فإن أتاك كتابي هذا فانصرنا على أمرنا هذا فإن لم تفعل فثبط الناس عن علي بن أبي طالب، وكن مكانك حتى يأتيك أمري والسلام[١] .**

**وتعد رسالة أم سلمة إلى عائشة (رضي الله عنهما) ــ لمّا علمت بعزمها على الخروج إلى البصرة، حاثة إياها على الرجوع إلى المدينة والقرار في بيتها ــ من أبلغ رسائل العصر الإسلامي وأوقعها وأدلها على حكمتها وبلاغتها وحميتها رضي الله عنها. وهي رسالة متوسطة الطول – جزلة اللفظ قوية المعنى سامية المقصد تقول فيها[٢] : من أم سلمة زوج النبيﷺ إلى عائشة أم المؤمنين سلام عليكِ، فأني أحمدُ الذي لا الله إلا هو، أما بعدُ: فإنّكِ سدة بين رسول الله ﷺ وبين أمته، وحجابك مضروب على حرمته، قد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكّن عُقيراكِ فلا تصحريها، الله من وراء هذه الأمة ، لو علم رسول الله ﷺ أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك ، عُلْتِ عُلْتِ ! بل نهاك عن الفرْطة في البلاد، إنّ عمود الدين لا يثاب بالنساء إن مال، ولا يربأ بهنّ إن صُدع ، حُماديات النساء غضّ الأطراف وخفض الأصوات، وخفرالأعراض، وضمّ الذيول، وقصر الوهازة،**

---

(١) العقد الفريد أحمد بن عبد ربه الأندلسي /شرح أحمد أمين وآخرون ٢٢٧/٢ – دار الكتاب العربي.وزيد بن صوحان من أشراف مكة فثبط بمعن انخذل ، وانظر جمهرة رسائل العرب / ١/ ٣١٩

(٢) السابق/ نفس الصفحة. وكانت أم سلمة تطالبها بتطبيق قوله تعالى (وقرن في بيوتكن)، ففي تفسير روح المعاني للآلوسي، روى البزاز عن انس : ان النساء جئن إلى رسول الله بعد نزول الآية فقلن : لقد ذهب الرجال بالفضل والجهاد، فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين؟ فقال: من قعد منكن في بيتها تدرك عمل المجاهدين وأخرج مسروق: أن عائشة كلما قرأت (وقرن في بيوتكن) تبكي حتى تبل خمارها.السدة : الحجاب والستر. تندحيه : تفضحيه. عقرالدار: أصلها وتصغرعلى عقير. لاتصحريها: لا تبرزيها وتجعليها كالصحراء. يقال عال عولا : جار ومال عن الحق والمعنى جرت في هذا الخروج وعدلت عن الصواب. يقال رأب فلان الصدع أى –أصلحه و الصدع: الشق حماديات يقال حماداك أن تفعل كذا أى مبلغ جهدك وغايتك مثل قصاراك . الخفر: شدة الحياء. والوهازة الخطو والمراد قصر الخطو. يقال فلان نص ناقته ، استخرج أقصى ما عندها من السير والقعود : البعير الشاب. الوقاع بالكسر : موضع وقوع طرف الستر على الأرض إذا أرسل.

وما كنت قائلة لرسول اللهﷺ لو عارضك ببعض الفلوات ناصة قلوصاً من منهل إلى منهل، واقسمُ بالله لو سرتُ مسيرك هذا، ثمّ قيل لي : يا أم سلمة : ادخلي الفِردوسَ، لاستحييت أن ألقى محمدا ﷺ هاتكة حجاباً قد ضربه عليّ. اجعلي بيتك حِصْنكِ، ووقاعة الستر قبرك، حتى تلقيه وأنت على تلك، أطوع ما تكونين لله إذا لَزِمته، وأنصرُ ما تكونين للدين ما حللتِ فيه، ولو ذكّرْتك قولاً من رسول الله ﷺ تعرفينه ، لنُهشتِ به نهش الرقشاء المطرقة ، والسلام »

وتؤكد الرسالة مطلب هام في الإسلام وهو وجوب التناصح في الله والصدق والإخلاص في النصيحة. ونلاحظ روح المحبة والإخلاص تسود الرسالة ودلائل ذلك كثيرة منها: جملة الأوامر والنواهي في عجزها، من مثل قولها رضي الله عنها: اجعلي بيتك حصنك، ووقاعة الستر قبرك ... قد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكن عقيراك فلا تصحريها. كما لا يخفى علينا هذه اللهجة الحادة والنبرة القوية التي تؤكد صدق النية وحسن الطوية وسلامة المقصد في آن واحد في قولها رضي الله عنها: "ولو ذكّرتك قولا من رسول الله ﷺ تعرفينه لنهشت به نهش الرقشاء المطرقة، والسلام".

والرسالة تتسم بقوة العبارة وحرارة العاطفة، لأنها تعبر عن مشاعر حانية ونفس ثائرة مهتاجة. وتسفر عن رزانة عقل ورجاحة فكر عرفت بهما أم سلمة رضي الله عنها.

وقد وظفت أم سلمة جميع الإمكانات المتاحة لخدمة فكرتها ،في سبيل حمل المخاطب على الإذعان والرضوخ لمطلبها .

ولنقف قليلا أمام قولها : " من أم سلمة زوج النبي ﷺ إلى عائشة أم المؤمنين ..." فنحن نعلم جميعا أن أزواج النبيﷺ هن جميعا أمهات للمؤمنين وأم سلمة رضي الله عنها واحدة منهن ومع ذلك فقد خصت بهذه الكنية السيدة عائشة دونها، واكتفت بالتعريف بنفسها بما كانت تكنى به، قبل أن تتزوج النبيﷺ ثم عقبتها بكونها زوج النبي، ولعلها رضي الله عنها أرادت أن تذكرها بأن هذه الكنية تلزمها بأشياء ينبغي مراعاتها ، فهي قدوة للمسلمين في فعالها، وأم سلمة بهذا قد وفقت في التقديم لرسالتها، إذ كان التقديم ذا صلة وثيقة بالموضوع ، ويسفر ابتداء عن الإفصاح عن رأيها .

ولم تطل أم سلمة التقديم فبعد السلام والحمد أشارت إلى مكانة عائشة في الدين وهذا ما عكسته كلمة "سدّة " في قولها "فإنك سدّة بين رسول الله ﷺ وبين أمته فقد شبهت مكانة عائشة في الأمة بالباب، فمتى أصاب هذا الباب شيء من الخرق فقد استبيح حمى الأمة، فينبغي ألا تكون هي رضي الله عنها سبب ذلك.

ومما كتبته عائشة ﷺ إلى علي بن أبي طالب ﷺ حين عاتبها على خروجها إلى البصرة ودخول معترك السياسة: "جل الأمر عن العتاب والسلام"(١) .

وإذا كان المغزى من الرسالة إيصال صوت المرسل، وتبليغ فكرته، فإنه يدخل تحت هذا الباب العديد من الرسائل الشفهية التي كان واسطتها رفع الصوت بمضمون الرسالة وفحواها، شعرا كانت أم نثرا ، وهذا يتطلب أن يجمع المرسل والمرسل إليه المكان، من ذلك ما فعلته هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، فقد قيل إنه لما قتل شيبة وعتبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، رثتهم هند فقالت تسمع عمرة بنت عبدالله بن رواحة الأنصاري، مهددة آل هاشم بالثأر لقتلاها(٢):

إني رأيت فسادا بعد إصلاح ∴ في عبد شمس فقلبي غير مرتاح
هاجت لهم أدمع تترى ومنبعها ∴ من رأس محروبة ما إن لها لاحى(٣)
لما تنادت بنو فهر على حنق ∴ والموت بينهم ساع لأرواح
كأنما النبح في قتلى مصرعة ∴ سرج أضاءت على جدر وألواح
يا آل هاشم إنا لا نصالحكم ∴ حتى نرى الخيل تردى كل كفاح
إن يمكن الله يوما من هزيمتكم ∴ يورث نساءكم داء بتقراح(٤)

فأجابتها عمرة:

---

(١) الإمامة والسياسة: ج١/٥٥. ونص رسالة علي كرم الله وجهه: "أما بعد فإنك قد خرجت غاضبة لله ولرسوله تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً. ما بال النساء والحرب والإصلاح بين الناس؟ تطلبين بدم عثمان، ولعمري لمن عرّضك للبلاء وحملك على المعصية أعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان، وما غضبت حتى أغضبت وما هجت حتى هيجت فاتقي الله وارجعي إلى بيتك" .

(٢) المحاسن والأضداد – الجاحظ / مكتبة العرفان ص ١٥٢

(٣) يقال لحى فلانا أي لامه وعزله

(٤) داء بتقراح : داء مصاحب بجروح أو قروح أو بثور

يـا هنـد مهـلا لقـد لاقيـت مهبلـة[1] ∴ يـــوم الأعنـــة والأرواح في الـــراح
أســد غضــارفة غــر جحاجحــة[2] ∴ أبنـــاء محصـــنة بـــيض لججحـــاح
هنالـــك الفوزوالرضـــوان إن صـــبروا ∴ مـــع الرســـول فمـــا آبـــوا بتقبـــاح
الله أهلكهـــــم والأوس شـــــاهدة ∴ والخـــزرج الغـــر فـــيهم كـــل مجتـــاح
لا تبعـــدن فـــإني غـــير صـــارخة ∴ وكيـــف تصـــرخ ذات البعـــل يـــا صـــاح

فالرسالتان أهم ما يميزهما لهجة التهديد والوعيد، ونلاحـظ أن الرسـالتين تأخذان طابع النقيضة.

ومن الرسائل التي تصور جانبا من سياسة بني أمية، القائمة على الـبطش والفتك بكل من تسول له نفسه معارضة دعوتهم، رسالة آمنة بنت الشريد. فقـد جاء في بلاغات النساء[3] " أنه لما قتل علي بن أبي طالب ﷺ بعث معاوية ﷺ في طلب شيعته، فكان فيمن طلب عمر بن الحمق الخزاعي فراغ منه فأرسـل إلـى امرأته آمنة فحبسها في سجن دمشق سنتين ، ثم إن عبد الرحمن بن الحكم ظفر بعمر في بعض الجزيرة فقتله وبعث برأسه إلى معاوية ــ وهو أول رأس حمل في الإسلام ــ فلما أتى الرسول معاوية بالرأس بعث به إلى آمنة في السجن، وقـال للحرس احفظ ما تكلم به حتى تؤديه إليّ ، واطرح الرأس في حجرها، ففعل هذا ، فارتاعت له ساعة ، ثم وضعت يدها على رأسها وقالت: واحزنا لصغره فـي دار هوان وضيق من ضيمه سلطان ، نفيتموه عني طويلا وأهديتموه إلي قتيلا، فأهلا وسهلا بمن كنت له غير قالية، وأنا له اليوم غير ناسية ، ارجع به أيها الرسـول إلى معاوية فقل له ولا تطوه دونه، أيتم الله ولدك، وأوحش منك أهلك، ولا غفـر لك ذنبك".

والرسالة على وجازتها بليغة ،عكست زفرة حرى من قلب مكلـوم مظلـوم مفجوع، لا يملك عدة أو عتادا غير هذه السهام المريشة ، مـن إنسـان أسـير ضعيف كسير، استطاعت أن تحمل خلاصة فكر السجينة مناسبة – على كل حال –

(١) مصيبة فقدت عقلك وتميزك
(٢) الجحاجحة : جمع جحجاح وهو السيد السمح الكريم
(٣) بلاغات النساء/ أحمد بن أبي طاهر بن طيفور/ ٣٧ المكتبة الرضوانية/ النجف١٣٦١هـ

لطبيعة المرأة هذا المخلوق الضعيف ، وإذا أضيف إلى هذا الضعف حبس ووحشة وإبعاد عن الأهل والولد فقد تضاعف الهوان.

وقد تبعث المرأة بالرسائل لتهدئة الأمر وسد الثلمة بين المتخاصمين، والعمل على إيجاد وحدة بين المسلمين فقد جاء في مصنف ابن عبد الرازق[١] أنه لما هاجت الحرب بين علي ومعاوية كانت بعوثهما تقدم مكة للحج فأيهما سبق فهو أمير الموسم أيام الحج للناس، ثم إنها أي " عائشة " أرسلت أم حبيبة زوج النبي ﷺ إلى أم سلمة لتتدخلا لتهدئة الأمر، قالت إحداهما للأخرى: تعالي نكتب إلى معاوية وعلي ، أن يعتقا من هذه البعوث التي تروع الناس ، حتى تجتمع الأمة على أحدهما ، فقالت أم حبيبة ، كفيتك أخي معاوية وقالت أم سلمة كفيتك عليا ، فكتبت كل واحدة منهما إلى صاحبها ، وبعثت وفدا من قريش والأنصار ، فأما معاوية فأطاع أم حبيبة ، وأما علي فهمّ أن يطيع أم سلمة فنهاه الحسن بن علي عن ذلك ، فكانت بعوثهما وعمالهما يختلفون إلى المدينة ومكة حتى قتل على رحمه الله تعالى، ثم اجتمع الناس على معاوية، ومروان وابن البختري يغلبان على أهل المدينة في تلك الفتنة.

وبعثت ليلى بنت عميس ــ لما اشتد الحصار على عثمان ــ إلى محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فقالت: إن المصباح يأكل نفسه ويضيء للناس فلا تأثما في أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيكما فإن هذا الأمر الذي تحاولون اليوم لغيركم غدا فاتقوا أن يكون عملكم اليوم حسرة عليكم[٢].

وذكر الخرائطي[٣] أن بشر بن مروان كان إذا ضرب البعث على أحد من جنده، ثم وجده قد أخل بمركزه، أقامه على كرسي ثم سمّر يديه في الحائط ، ثم انتزع الكرسي من تحت رجليه، فلا يزال يتشحط حتى يموت ، وأنه ضرب البعث

---

(١) مصنف عبد الرازق الصنعاني ٥/ ٤٥٢، كتاب المغازي، غزوة ذات السلاسل، وخبرعلي ومعاوية لم أقف بعد البحث الدقيق على نص الرسالتين .

(٢) الفتنة ووقعة الجمل. سيف بن عمر الأسدي التميمي .صـ٦٧ .

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية / تحقيق محمد عزير شمس ص ٣٠٤ / دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، لم نعثر على نص الرسالة رغم المسح الشامل والاستقصاء التام .

**على رجل عاشق حديث عهد بعرس ابنة عمه، فلما صار في مركزه كتب إلى ابنة عمه كتابا ثم كتب في أسفله:**

**لـــولا مخافـــة بشـــر أوعقوبتـــه ∴ وأن يـــرى بعـــد ذا في الكـــف مســـمار**

**إذا لعطلـــت ثغـــري ثـــم زرتكـــم ∴ إن المحـــــب إذا مـــــا اشـــــتاق زوار**

**فلما ورد عليها الكتاب أجابته عنه، ثم كتبت في أسفله:**

**ليس المحب الـذي يخشـى العقـاب ولـو ∴ كانـــت عقوبتـــه في فجـــوة النـــار**

**بـــل المحـــب الـــذي لا شـــيء يفزعـــه ∴ أو يســـتقر ومـــن يهـــواه في الـــدار**

**ــ نقول بعد ذلك: إذا كانت بعض الرسائل قد كشفت عن مسلك بعض خلفاء بني أمية وولاتهم وأخذهم أمر الناس بالقوة، فقد كشف البعض منها عن رحمـــة وشفقة ملموستين بالرعية، كما جاء في قصة فرتونة السوداء. " فقد روي أنـــه كان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحدا من الناس إذا خرج كتابا إلا حملـــه ، فخرج بريد مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابا تذكر فيه أن لها حائطا قصيرا وأنه يقتحم عليها فيسرق دجاجها "[(١)] .**

**ــ وهناك الرسائل التي قصد من ورائها إسداء النصيحة، فقد كتبت عمـــرة بنت عبد الرحمن إلى الحسين، تعظم عليه ما يريد أن يصـــنع وتـــأمره بالطاعـــة ولزوم الجماعة، وتخبره إنما يساق إلى مصرعه.[(٢)]**

---

(١) فكتب : "بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح ، بلغني كتابك وما ذكرت من قصر حائطك وأنه يدخل عليك فيسرق دجاجـك ، فقـد كتبت كتابا إلى أيوب بن شرحبيل – عامله على صلات مصر وحربها –آمره بأن يبنـي لـك ذلك يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله . انظر: الدولة الأموية عوامل الازدهـار وتـداعيات الانهيار/ علي محمد الصلابي ٢ / ٢٣٣ دار المعرفة –بيروت – لبنان. الأولـى ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م – نقلا عن سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبـد الحكـم ١٦٣ – ١٦٤ ، التـاريخ الإسلامي ١٥ / ٧٧.

(٢) انظر تاريخ الطبري / أبوجعفر بن جرير الطبري / اعتنى به أبو صهيب الكرمـي٧/١٤٠ ط/ دار الأفكار الدولية – الأردن ــ رغم المسح الشامل للمراجع القديمة لم أقف على نـص الرسالة.

# الرسائل الدينية

انصب الكثير من رسائل العصر الإسلامي وصدر الإسلام خاصة على معالجة العديد من المسائل والقضايا الدينية، إذ وقفت على كم كبير من الرسائل التي ترسلها المرأة إلى النبيﷺ أوأحد فقهاء الصحابة أوالتابعين، مستفهمة عن أمر يعن لها ومن أهم الكتب التي احتفظت لنا بهذه الرسائل:(مسند أحمد)،(أخبار مكة وما جاء فيها من آثار)، (مكارم الأخلاق ودلائل النبوة) وهذا يدل على مسايرة الرسائل لظروف العصر، ومقتضى الحاجة .

فعصر صدر الإسلام باعتباره فجرا جديدا للدين الإسلامي، اقتضت حاجة المجتمع الإسلامي إلى الوقوف على تشريعاته ومعرفة ما دعا إليه وما حذر منه، والمرأة باعتبارها جزء لا يتجزأ من هذا الكيان، كان لها ما يخصها من الأسئلة والاستفهامات.

ومما ورد عنها من رسائل في هذا الاتجاه: ما جاء عن محمد بن صدقة أن رسول الله ﷺ بعث جيشا فقال من القوم لامرأته: لا تخرجي من بيتك، فلما خرج اشتكى أبوها بمرض فأرسلت إلى رسول اللهﷺ تستأذنه في الخروج إلى أبيها فأرسل إليها أن اتقي الله وأطيعي زوجك ثم أرسلت إليه إن أبي في الموت، فأرسل إليها أن اتقي الله وأطيعي زوجك فأرسلت إليه إنه قد مات، فأرسل إليها أن اتقي الله وأطيعي زوجك وقري في بيتك "[١] .

من ذلك أيضا ما رواه يحيى بن عباد أبي هبيرة قال: كتبت امرأة من أهل الري إلى إبراهيم النخعي أنها موسرة وليس لها بعل أو محرم، ولم تحج قط، فكتب إليها إبراهيم:"إن هذا من السبيل الذي قال الله وليس لك محرم فلا تحجي إلا مع بعل أو محرم"[٢] .

وكتبت أم ولد لمروان بن الحكم إلى وكيل لها بالمدينة: ابتع لي غلاما عالما بالسنة، قارئا لكتاب الله فصيح اللسان عفيفا، فكتب إليها: قرأت كتابك وطلبت لك

---

(١) أدب النساء /عبد الملك بن حبيب السلمي ٢٤٥/١ تحقيق عبدالمجيد تركي- ط الأولى ١٤١٢هـ ،١٩٩٢ م.

(٢) المصنف في الأحاديث والآثار – أبو بكر بن شيبة تحقيق/ كمال يوسف الحوت /مكتبة الرشيد – الرياض. ط. الأولى ١٤٠٩هـ رقم الاثر ١٥١٦٨.

غلاما على ما وصفت فلم أجده إلا عبد الله بن عمر بن الخطاب وقد رأى أهله ألا يبيعوه[١] .

وأرسلت عائشة (رضي الله عنها) إلى أبي السائب وكان قاصا، فقالت : "حدث في كل جمعة يوما، فإن أبيت فيومين، فإن أبيت فثلاثة، وإياك أن تأتي القوم وهم يتحدثون فتقص عليهم فتملهم، وإياك والسجع في الدعاء، فإن رسول الله ﷺوأصحابه كانوا يكرهونه"[٢] .

ومن ذلك ما كتبته رضي الله عنها إلى معاوية بن أبي سفيان حين كتب إليها "اكتبي إليّ بشيء سمعته من أبي القاسم ﷺ فكتبت إليه:" سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : "من عمل بما يسخط الله عاد حامده من الناس له ذما"[٣].

وبعد:

فالرسائل الدينية في العصر الإسلامي كثيرة، تكشف عن رغبة المرسل في توضيح المقاصد والوقوف على رأي الدين، بينما تكاد تنعدم مثل هذه الرسائل في العصر العباسي ولعل مرد ذلك إلى ما حظيت به المرأة من حرية في العصر العباسي زادت في ظل هذا الانفتاح والرقي الحضاري مكّناها من الذهاب بنفسها للقاضي والفقيه تسأله شفاها عما يعن لها من أمور فأصبحت الحاجة غير داعية إلى كتابة الرسائل.

---

(١) انظر جمل من أنساب الأشراف – أحمد بن يحيى البلاذري/ تحقيق سهيل زكار وريـاض الزركلي. دار الفكر – بيروت – الأولى ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦م

(٢) كتاب الدعاء – محمد بن فضيل الضبي / تحقيق عبدالعزيز البعيمي ٢٠٦/١ مكتبة الرشيد ، الرياض ، الأولى ١٤١٩ هـ

(٣) العقد الفريد ص ٧٧

# رسائل الاعتذار

**وقفت في هذا العصر على رسائل اعتذار عديدة للمرأة فاعتذرت عن خلف الوعد وإجابة المطلب وعن شيء يتعذر عليها القيام به.**

**من ذلك اعتذار أم سلمة رضي الله عنها لعلي بن أبي طالب عن خروجها معه إلى البصرة لمناصرته معللة ذلك بعدم فرضية الجهاد على المرأة وكونها مأمورة بالقرار في البيت تقول: "أما بعد: فإن طلحة والزبير وأشياعهم يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة، ومعهم ابن الحزّان "عبد الله بن عامر بن كريز"، ويذكرون أن عثمان قتل مظلوما، وأنهم يطلبون بدمه، والله كافيهم بحوله وقوته، ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج، وأمرنا به من لزوم البيوت، لم أدع الخروج إليك، والنصرة لك، ولكني باعثة نحوك ابني عدل نفسي عمر بن أبي سلمة، فاستوص به يا أمير المؤمنين خيرا "(١) .**

**ومن أبلغ اعتذارات النساء ما كتبته جارية كان قد تزوجها خالد بن الوليد إلى عبدالملك بن مروان حين بعث من يأتي له بأطمارها لينظر إليها تقول فيها(٢):**

| | | |
|---|---|---|
| يا ابن الذوائب من أمية والذي | ∴ | صارت إليه خلافة الجبار |
| فبم استفزك خالد بحديثه | ∴ | حتى هممت بأن ترى أطماري |
| فلئن هزئت بسحق ثوب ناحل | ∴ | إني لمن قوم ذي أخطار |
| لا يبطرون لدى اليسار ولا هموا | ∴ | دنس الثياب يرون في الأعصار |
| فارفض بطالة خالد وحديثه | ∴ | واحفظ كريمة معشر أخيار |

---

(١) جمهرة رسائل العرب – العصر الجاهلي وصدر الإسلام ص٣١٦ نقلا عن شرح ابن أبي الحديد مجلد٢ ص٧٨ .

(٢) جاء في بلاغات النساء هـ . أن خالد بن الوليد خرج حاجا، فمر بأهل بيت من العرب من بني عامر بن صعصعة ، فنزل بماء لهم فرأى جارية منهم فأعجبته فبعث إلى أبيها فخطبها وزوجه على عشرة آلاف درهم ، ثم قال أدخلوها علي في أطمارها التي رأيتها فيها ، فأدخلت عليه فأعجبته وأخذت بقلبه فأكرمها وأخذ أطمارها فصيرها في صندوق وقفل عليها وحملها إلى الشام فدخل على عبدالملك فحدثه حديثها وما رأى من ظرفها ، فبعث عبد الملك إلى الأطمار لينظر إليها ، فلما دخل الرسول بطلب الأطمار قالت الجارية اجلس فإن أمير المؤمنين عزمني، ثم كتبت الأبيات، بلاغات النساء ، بن طيفور أحمد بن أبي طاهر / ٩٢ /المكتبة الرضوانية ومطبعتها الحيدرية النجف ١٣٦١هـ وقيل إنّ هذا الحدث وقع لخالد بن يزيد بن معاوية انظر تاريخ دمشق / ابن عساكر / ٢٩٢ــ ٢٩٤/ ٧٠ .

فلما قرأ عبدالملك شعرها وصلها بمائة ألف درهم وأوصى خالدا بها.

وتعكس الرسالة ما كان يتندر به الخلفاء والولاة في مجالسهم من الحديث عن النساء والغزل وأقاصيص الهوى والصبابة.

ومن رسائل العتاب والاعتذار أيضا رسالة أم خالد بن عبدالله القسري إلى ابنها خالد ردا على رسالته التي دعاها فيها إلى الدخول في الإسلام والمجيء إليه للإقامة بجواره لأن ذلك أدعى إلى حسن برها. تقول فيها:(١) " ... من أم خالد أما بعد... فقد جاءني كتابك وفهمت ما دعوتني إليه من دينك الذي ارتضيته لنفسك ولعمري ما ليتني خيرا عن نفسك وإن لك دنيا ولي دين وزعمت أنه أقوى لك على بري إذا قربت منك ولعمري إنك لقوي على بري أين كنت، واعلم يا بني أني قرأت في كتاب الله أنه من عمل بكبيرة أسود ثلث قلبه، فإن عاد اسود ثلثاه ، فإن عاد اسود قلبه كله، ومن عمل السيئ وهو يراه حسنا فقد خاس، واعلم يا بني أن كل ذنب مع الدم أمم" قال فيئس منها واتخذ لها بيعة في الشام يقال لها بيعة أم خالد.

وتشير الرسالة إلى ما أخذ به بعض من دخلوا في الإسلام من دعوة آبائهم وذويهم إلى الدخول فيه، وتعكس جملة "الذي ارتضيته لنفسك" رفضها ما دعاها إليه، كما تعكس جملة "وإن لك دنيا ولي دين" ما رسخ في ذهن أصحاب العقائد الأخرى من تمسكهم بمعتقدهم حتى ولو كان باطلا.

كما اعتذرت السيدة عائشة للسيدة أم سلمة لعدم قبولها لنصيحتها بعدم الخروج إلى البصرة قائلة:" من عائشة أم المؤمنين إلى أم سلمة، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد:- فما أقبلني لوعظك وأعرفني لحق نصحك، وما أنا بعمّية عن رأيك، وليس مسيري على ما تظنين،ولنعم المسير مسير فزعت فيه إلىّ فئتان متناحرتان من المسلمين، فإن أقعد ففي غير حرج وإن أمض فإلى ما لابد من الازدياد منه، والسلام."

والرسالة على وجازتها أوضحت الغرض وأبانت عن المقصد، ونلاحظ أسلوب الترضية التي طيبت خلاله السيدة عائشة خاطر السيدة أم سلمة لرفضها

(١) بلاغات النساء – ابن طيفور ص ١٠٤

**مطلبها من خلال أسلوب التفضيل في جملتي" ما أقبلني لوعظك ، وأعرفني لحق نصحك " .**

**ومن بليغ الاعتذار ما جاء في بلاغات النساء من أنه خطب عمران بن موسى بن طلحة هندا بنت أسماء بن خارجة الفزاري فردته وأرسلت إليه تقول : أني والله ما بي عنك رغبة ولكن لا أتزوج إلا من لا يودي قتلاه ولا يرد قضاءه وليس ذلك عندك.(١)**

**فقد أفصحت المرأة عن مطلبها فيمن تريد الزواج منه وكان رأس مطالبها أن يكون نافذ الرأي فلا يرد له قولا، يثأر لقتلاه ولا يقبل ديتهم.**

**وإذا كانت هند قد اعتذرت – لمن جاءها خاطبا– بأسلوب متحضر فإن أخرى تعتذر لمن وعدته بالزواج اعتذارا سافرا ماكرا لا يخلو من الهزأ والسخرية، فقد كان بالكوفة امرأة موسرة لها على الناس ديون كثيرة بالسواد، فأتت الحكم بن عبدل وعرّضت له بأنها تتزوجه إذا اقتضى لها ديونها فقام ابن عبدل بدينها حتى اقتضاه ثم طالبها بالوفاء فكتبت إليه:(٢)**

**سيخطئك الذي حاولت مني ∴ فقطع حبل وصلك من حبالي**

**كما أخطاك معروف ابن بشر ∴ وكنت تعد ذلك رأس مال**

**فلا والله لو كرهت شمالي ∴ يميني ما وصلت بها شمالي**

---

(١) ابن طيفور / ٩١

(٢) والحكم بن عبدل هو جبلة الأسدي الكوفي، شاعر مجيد من شعراء الدولة الأموية، ... كان ممن نفاه ابن الزيات من العراق فقدم دمشق ونال من عبدالملك بن مروان حظوة ، وكان بن عبدل يأتي بشر بن مروان بالكوفة فيسأله فيقول له أخمسمائة أحب إليك العام أم ألف في قابل؟ فيقول: ألف في قابل ،فإذا أتاه من قابل فيقول له ألف أحب اليك العام أم ألفان في قابل؟ فيقول: ألفان فلم يزل كذلك حتى مات بشر ولم يعطه شيئا .انظر معجم الأدباء ٢٣٥/٣ دار الكتب العلمية .بيروت وذيل الأمالي والنوادر – أبو علي القالي المجلد ٣ ص ٤٦ ط دار الكتب العلمية /بيروت لبنان .. مع تغير في ألفاظ الروايتين وزيادة البيت الثالث في ذيل الأمالي . السواد : من البلد قراه وسواد المدينة : ما حولها من القُرى والريف.

# الشكوى والعتاب

الشكوى" إظهار ما يكابده المرء من ألم نفسي،أوجسدي ناتج عن الظلم أو القهر وسيطرة قوى خارجة عن إرادته ما يقف أمامه عاجزا لا يستطيع له ردا[١]

فالشكوى إذن حالة انفعالية تجاه مثير معين أو عدة مثيرات تصيب النفس المرهقة بالقلق والتوتر حتي يسيطر عليها ، ويستقر في مكنونها ، فتضطر لإطلاقه من محبسه في محاولة للاستشفاء "[٢]

وصدق ابن رشيق حين قال:" والنساء أشجى الناس قلوبا عند المصيبة، وأشدهم جزعا على هالك، لما ركب الله عز وجل في طبعهن من الخور وضعف العزيمة... "[٣]

فهذه امرأة تتعرض لعمر بن الخطاب أثناء الطواف شاكية قائلة[٤]:

فمنهن من تسقى بماء بمرد ∴ نقاح فتلكم عند ذلك قرّت

ومنهن من تسقى بأخضر آجن ∴ أجاج ولولا خشية الله فرّت

ففهم شكواها فبعث إلى زوجها فوجده متغير الفم فخيره بين خمسمائة من الدراهم وطلاقها فاختار الدراهم فأعطاه وطلقها.

ومن أبلغ رسائل الشكوى الممزوجة بالعتاب في عصر صدر الإسلام وأدلها على تصوير حدث مقتل عثمان بن عفان ﷺ – ما كتبته السيدة نائلة بنت الفرافصة زوجته (رضي الله عنها) إلى معاوية بن أبي سفيان تصور بشاعة مقتله وتحثه على الأخذ بثأره والنيل من قتلته فتقص ما كان من أمر حصاره وصبره على هؤلاء المعتدين فقد وصل الأمر بهم إلى أن يمنعوه كل شيء قدروا عليه وامتناعه ﷺ عن رفع السلاح عليهم ومنع من كان محاصرا معه من رفع السلاح في وجه من تألبوا عليه. وإني لأترك للقارئ فرصة التمتع بهذا التصوير الرائع و القصص الحي المؤثر الذي يقطع نياط القلوب على مصرع ثالث الخلفاء

---

(١) مجلة تشرين ص١٤٢ العدد ١٦ المجلد ٢٣ دمشق ٢٠٠١ م ، مقال بعنوان الشكوى من المرأة في شعر الأحوص الأنصاري د/عبدالكريم يعقوب وعلي عبدالله

(٢) مجلة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها ص٢٢٠ يناير ٢٠٠٩ م المحرم ١٤٣٠ هـ العدد (١)

(٣) العمدة ابن رشيق القيرواني ص ١٥٣ ج٢ طبعة دار الجيل /بيروت

(٤) العقد الفريد ٤٦٣/٢

الحيي المظلوم مجهز جيش العسرة، فقد جاء في العقد الفريد قوله: عندما قتل عثمان بعثت نائلة إلى معاوية بن أبي سفيان بأصابعها المقطعة وقميص عثمان المخضب بالدماء وأوحت إليه أن يعلقها في المسجد الجامع بدمشق وأن يقرأ على المجتمعين كتابها الذي أرسلته إليه[١] تقول فيه : من نائلة بنت الفرافصة إلى مُعَاوِيَة بْن أَبي سُفْيَان : أما بعد ، فإني أذكركم باللَّهِ الَّذِي أنعم عليكم ، وعلمكم الإسلام ، وهداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الكفر ، ونصركم عَلَى العدو، وأسبغ النعمة[٢] ، وأنشدكم باللَّهِ ، وأذكركم حقه وحق خليفته الَّذِي لم تنصروه[٣]، وبعزمة اللَّه عليكم ، فإنه عز وجل يَقُولُ ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ سورة الحجرات آية ٩ وإن أَمِير الْمُؤْمِنِينَ بغي عَلَيْهِ ، ولو لم يكن لَهُ عليكم حق إلا حق الولاية ، ثُمَّ أتي بمَا أتي ، لحق عَلَى كل مسلم يرجو أيام اللَّه أن ينصره ، لقدمه فِي الإسلام ، وحسن بلائه ، وأنه أجاب داعي اللَّه وصدّق كتابه[٤]، والله أعلم بهِ إذ انتجبه، فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة. وإني أقص عليكم خبره، لأني كنت مشاهدة أمره كله حَتَّى أفضي إِلَيْهِ، وإن أَهْل المدينة حصروه فِي داره، يحرسونه ليلهم ونهارهم. قيام عَلَى أبوابه بسلاحهم، يمنعونه كل شيء قدروا عَلَيْهِ، حَتَّى منعوه الماء يحضرونه الأذى ويقولون لَهُ الإفك. فمكث هو ومن معه خمسين ليلة ، وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى مُحَمَّد بْن أَبي بَكْر وعمار بْن ياسر ، وَكَانَ علي مع المحرضين من أَهْل المدينة ، ولم يقاتل مع أَمِير الْمُؤْمِنِينَ ، ولم ينصره ، ولم يأمر بالعدل الَّذِي أمر اللَّه تبارك وتعالى بهِ. فظلت تقاتل خزاعة وسعد بْن بَكْر ، وهذيل ، وطوائف من مزينة وجهينة ، وأنباط يثرب، وَلا أرى سائرهم ، ولكني سميت لكم الذين كَانُوا أشد النَّاس عَلَيْهِ فِي أول أمره وآخره.

---

(١ ) الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني / تحقيق مصطفى السقا -٣٢٤/١٦- ط دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م

(٢) ف : وأوسع عليكم النعمة

(٣) وحق خليفته أن تنصروه

(٤) كذا في ف . وفي الأصول : رسوله

ثُمَّ إنه رمي بالنبل والحجارة ، فقتل ممن كَانَ فِي الدار ثلاثة نفر ، فأتوه يصرخون إِلَيْهِ ، ليأذن لهم فِي القتال ، فنهاهم عَنْهُ ، وأمرهم أن يردوا عليهم نبلهم ، فردوها إليهم ، فلم يزدهم ذَلكَ عَلَى القتال إلا جراءة ، وفي الأمر إلا إغراء، ثُمَّ أحرقوا باب الدار ، فجاءه ثلاثة نفر من أصحابه ، فَقَالُوا : إن فِي المسجد ناسا يريدون أن يأخذوا أمر النَّاس بالعدل ، فاخرج إلى المسجد حَتَّى يأتوك ، فانطلق فجلس فِيهِ ساعة ، وأسلحة القوم مطلة عَلَيْهِ من كل ناحية ، وَمَا أرى أحدا يعدل ، فدخل الدار.وقد كَانَ نفر من قريش عَلَى عامتهم السلاح ، فلبس درعه وَقَالَ لأصحابه : لولا أنتم مَا لبست درعا ، فوثب عَلَيْهِ القوم ، فكلمهم ابْن الزُّبَيْر ، وأخذ عليهم ميثاقا فِي صحيفة ، بعث بهَا إلى عُثْمَان : إن عليكم عهد اللَّه وميثاقه ألا تعروه بشيء ، فكلموه وتحرجوا ، فوضع السلاح فلم يكن إلا وضعه حَتَّى دخل عَلَيْهِ القوم يقدمهم ابْن أَبي بَكْر ، حَتَّى أخذوا بلحيته، ودعوه باللقب ، فَقَالَ أَنَا عَبْد اللَّهِ وخليفته ، فضربوه عَلَى رأسه ثلاث ضربات، وطعنوه فِي صدره ثلاث طعنات، وضربوه عَلَى مقدم الجبين فوق الأنف ضربة أسرعت فِي العظم ، فسقطت عَلَيْهِ وقد أثخنوه وبه حياة ، وهم يريدون قطع رأسه ليذهبوا بهِ، فأتتني بنت شَيْبَة بْن ربيعة، فألقت نفسها معي عَلَيْهِ، فوطئنا وطئا شديدا، وعرينا من ثيابنا، وحرمة أَمِير الْمُؤْمِنِينَ أعظم .فقتلوه رحمة اللَّه عَلَيْهِ فِي بيته، وعلى فراشه، وقد أرسلت إليكم بثوبه، وعليه دمه، وإنه والله لئن كَانَ أثم من قتله، لما يسلم من خذله، فانظروا أين أنتم من اللَّه جل وعز ، فإنا نشكي مَا مسنا إِلَيْهِ ، ونستنصر وليه وصالح عباده.

ورحمة اللَّه عَلَى عُثْمَان ، ولعن اللَّه من قتله ، وصرعهم فِي الدنيا مصارع الخزي والمذلة ، وشفى منهم الصدور " فحلف رجال من أَهْل الشام ألا يطأوا النساء حَتَّى يقتلوا قتلته،أو تذهب أرواحهم.

وقد تحقق في الرسالة قواعدها الفنية من بداية ووسط ونهاية، والرسالة أهم ما يميزها سهولة لغتها وسلاسة أسلوبها، يقل فيها الخيال، وتكاد تخلو من الزخارف اللفظية، مالت فيها – رضي الله عنها- إلى الوصف التحليلي للحدث، رغبة في التأثير في المتلقي ودعّمت قولها بالاستشهاد بآي الذكر الحكيم .

وتكثر في العصرالإسلامي رسائل العتاب بين المحبين والعشاق، خاصة عند شعراء الغزل الحضاري وأستاذهم – بلا منازع – عمر بن أبي ربيعة القرشي فقد كثرت بينه وبين محبوباته الرسائل التي تفصح عن تحضر وقدر من الحرية نالته المرأة

**القرشية ، فهي تخاطب الرجال في غير تبذل وتحادثهم في غير تفحش وبالاستقصاء تبين ورود لفظ أرسلت على اختلاف اسم المرسلة في ديوان ابن أبي ربيعة عشرين مرة تقريبا وثلاث مرات بلفظ بعثت و تسع مرات بلفظ رسول وجل هذه الرسائل كانت على لسان ثقف أمين من الرجال أو النساء ومعنى ذلك أن أغلب الرسائل الغرامية حتى ذلك الوقت كانت تبلغ شفاها .يقول في إحدى قصائده .(١)**

**لقد أرسلت في السر ليلى تلومني ∴ وتزعمني ذا قلة طرفا جلدا**
**تقول لقد أخلفتنا ما وعدتنا ∴ ووالله ما أخلفتها طائعا وعدا**
**فقلت مروعا للرسول الذي أتى ∴ تراه لك الويلات من نفسها جدا**

**وكتبت أمامة إلى عبدالله بن الدميمنة شاكية معاتبة، عندما كتب إليها معاتبا شاكيا هواها وما جره عليه من أسى ومن حفيظة قومه قائلة:(٢)**

**وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني ∴ وأشمت بي من كان فيك يلوم**
**وأبرزتني للناس ثم تركتني ∴ لهم غرضا أرمى وأنت سليم**
**فلوأن قولا يكلم الجسد قد بدا ∴ بجلدي من قول الوشاة كلوم**

**وأخرى تكتب إلى أبيها شاكية معاتبة، لتزويجه إياها بغير إذن منها ومن غير كفؤ، مصورة شدة معاناتها قائلة(٣).**

**أيا أبتي عنيتني وابتليتني ∴ وصيرت نفسي في يدي من يهينها**
**أيا أبت لولا التحرج قد دعا ∴ عليك مجابا دعوة تسدينها**

---

(١) ديوان عمر بن ربيعة / تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد/ ١٠٨,١٠٧دار الراتب الجامعية بيروت.

(٢) انظر الحيوان – الجاحظ تحقيق/ عبدالسلام هارون/ ٣ /٥٥ / طابعة الهيئه العامه لقصور الثقافه، وأبيات ابن الدميمنة هي:

**وأنت التي كلفتني دلج السرى ∴ وجون القطا بالجلهتيين جثوم**
**وأنت التي قطعت قلبي حرارة ∴ وقرحت قرح القلب وهو كليم**
**وأنت التي أسخطت قومي فكلهم ∴ بعيد الرضا داني الصدود كظيم**

(٣) انظربلاغات النساء ابن طيفور ١٣٥.

# الرسائل الغرامية

حفل عصر بني أمية بالعديد من الرسائل الغرامية التي تصور الدين وحرمته، والحب ولوعته ، والغرام وحرقته، والهجر وشوقته، وكانت هذه الرسائل وقودا جزلا لإشعال نار الهوى بين المحبين من ناحية ، ومنابع ثريّة للتجربة الغرامية من ناحية أخرى.

ويشير زكي مبارك إلى كثرة الرسائل الغرامية في عصر بني أمية وأول العصر العباسي فيقول: " .... ثم جاء القصص الغرامي الذي شاع في عصر بني أمية وأول عصر بني العباس وهو قصص كثير تجد أطايبه مبعثرة في كتب الأدب هنا وهناك وفيه فقرات من الغزل الصرف يؤدي ما يؤديه الشعر من مليح الأوصاف"(١) .

وجمع كتاب"عشاق العرب" العديد من الرسائل المتبادلة بين المحبين، والتي تمثل لونا ناضجا من ألوان القصص الغرامي، لما تحويه من مقومات الإجادة في العمل القصصي، من أبطال، وشخصيات حية، وحدث متنام، وحبكة قصصية، ولحظات تنوير، وزمان ومكان ... إلخ. فبتتبع الرسائل في كل قصة يتشكل لنا عمل قصصي لا نبالغ إذا قلنا إنه "من أروع قصصنا العربي"،(٢) إذ فوق ما يحويه من أسلوب بياني تصويري رائع، يعكس أثر الإسلام الذي خامر النفوس فانعكس ذلك على سلوك المحبين، وبدا أثره فى عشقهم، ولو أدى بهم الغرام إلى أن يموتوا كمدا وحسرة فضم الكتاب بين دفتيه أكثر من عشر قصص غرامية تصور تلك العاطفة الجموح.

ومن أبرز ما حواه من قصص محبوكة الأطراف مكتملة العناصر قصة هند وبشر، وأنس الوجود وورد، وقيس وليلى. فقصة أنس الوجود تصور دور القدر في جمع شمل الحبيبين.

ومما كتبته ورد إلى أنس الوجود قولها :(٣)

يا من تعلق قلبه بجمالنا ∴ اصبر لعلك في الهوى تحظى بنا

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع . زكي مبارك / ١٤٧.
(٢) عبد المجميد زراقط . دار البحار / بيروت لبنان الأولى ١٩٨٧م
(٣) مصارع العشاق / أبو محمد القاري جعفر بن أحمد بن الحسين القاري جـ ٢١ / ٣٨٩ طبعة الجوائب ١٣٠٢ هـ .

لمـــا علمنـــا أن حبـــك صـــادق ∴ وأصـــاب قلبـــك مـــا أصـــاب فؤادنـــا
زدنـــاك فـــوق الوصـــل وصـــلا مثلـــه ∴ لكـــن منـــع الوصـــل مـــن حجابنـــا
وإذا تجلـى الليـل مـن فـرط الهـوى ∴ تتوقـــد الـــنيران في أجســـامنا
الفـرض في شـرع الهـوى كـتم الهـوى ∴ لا ترفعـــوا المســـبول مـــن أســـتارنا

**وكتبت امرأة عمر بن عبد العزيز إليه تعاتبه عتابا رقيقا لما اشـتغل عنهـا بالعبادة[١] :**

ألا أيهـــا الملـــك الـــذي قـــد ∴ ســـبا عقلـــي وهـــام بـــه فـــؤادي
أراك وســـعت كـــل النـــاس عـــدلا ∴ وجـــرت علـــي مـــن بـــين العبـــاد
وأعطيـــت الرعيـــة كـــل فضـــل ∴ ومـــا أعطيـــتني غـــير الســـهاد

**وقد تكون الرسالة بمثابة قصة تصور خوالج نفس وتعالج ما يعن لها مـن هموم وشواغل يقول ناقلا إحدى رسائلها.[٢]**

لقـد أرسـلت في السـرليلى بـأن أقـم ∴ ولا تنأنـــا إن التجنـــب أمثـــل
لعـــل العيـــون الرامقـــات لودنـــا ∴ تكـــذب عنـــا أو تنـــام فتغفـــل
أنـــاس أمنّـــاهم فبثـــوا حـــديثنا ∴ فلمـــا قصـــرنا الســـير عـــنهم تقولـــوا
فقلـت وقـد ضـاقت علـي برحبهـا ∴ بـــلادي بمـــا قـــد قيـــل فـــالعين تهمـــل
ســـأجتنب الـــدار الـــتي أنـــتم بهـــا ∴ ولكـــن طـــرفي نحـــوكم ســـوف يعـــدل
أرى مسـتقيم الطـرف مـا أمّ نحـوكم ∴ فـــإن أمّ طـــرفي غيركـــم فهـــو أحـــول

**ولعل ما رسخ في المجتمع الجاهلي والعصر الإسلامي من عرف يقضي منع تزويج من شاع أمرهما في الحب والهوى ، كان وراء تفنن المحبين في الالتقاء بمن يحبون، و تبليغ الرسائل إليهم بعيدا عن أعين الرقباء، فعمدوا إلى الإلغاز و التلميح حتى يأمنوا غضب ولى المحبوبة ، فحكي أن أعرابيا بعث غلامًا له إلـى امرأة يواعدها موضعا يأتيها فيه، فذهب الغلام وأبلغها الرسالة، فكرهت المرأة أن تقر للغلام بما بينهما فقالت" والله لئن أخذتك لأعركن أذنك عركـة تبكـي منهـا**

(١) العقد الفريد ٨/١٢١.
(٢) السابق ص ٣٤٤ .

وتستند إلى تلك الشجرة ويُغشى عليك إلى وقت العتمة فلم يعرف الغلام معنى هذا الكلام وانصرف إلى صاحبه، وحكي له فعلم أنها واعدته تحت الشجرة وقت العتمة" (١).

وقيل: إن كثير عزة لقي جميلا فقال له: متى عهدك ببثينة ؟ قال مالي بها عهد منذ عام أول وهي تغسل ثوبا بوادي الدوم فقال له كثير : تحب أن أعهدها لك الليلة ؟ قال نعم فأقبل راجعا إلى بثينة فقال له أبوها يا فلان ما ردّك أما كنت عندنا من قبل؟ قال بلى ولكن حضرتني أبيات قلتها في عزة قال وما هي؟ قلت:

فقلت لها يا عز أرسل صاحبي ∴ على باب داري والرسول موكل

أما تذكرين العهد يوم لقيتكم ∴ بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل

فقالت بثينة اخسأ فقال أبوها ما هاجك يا بثينة ؟ قالت كلب لا يزال يأتينا من وراء الجبل بالليل وأنصاف النهار، قال: فرجع إليه، فقال: قد وعدتك من وراء هذا الجبل بالليل وأنصاف النهار فألقها إذا شئت(٢) .

وإذ وقفنا على بعض هذه الرسائل في بيئة العذريين فقد وقفنا على الكثير منها في بيئة الغزل الحضاري خاصة عند عمر بن أبي ربيعة ، فقد أكثر من إرسال الرسل والرسائل .

وقد مثلت ببعض رسائله في غرض العتاب، وأيا كان مرفّد هذه الرسائل عنده فكثرتها تمثل ظاهرة في شعره، كما تؤكد حرية نالتها المرأة في ظل الإسلام، حرية أتاحت لها قدرا من التعبير عن عواطفها وتصوير خوالجها .

وإن كان البعض قد ذهب إلى نرجسية عمر، فالذي نريد التأكيد عليه أنه حتى لو تحققت نرجسيته فيبقى لنا بعض ما يؤكد صحة نسبة الرسائل المرسلة منه وإليه.

---

(١) قصص العرب/ مجموعة تراثية جامعة لقصص ونوادر وطرائف العصر الجاهلي والإسلامي ، إعداد إبراهيم شمس الدين / ٦١، ٦٢ نقلا عن كتاب الأذكياء / ١٩٥.تحت عنوان قصص العقلاء والأذكياء

(٢) قصص العرب العصر الجاهلي والإسلامي: إعداد إبراهيم شمس الدين / دار الكتب العلمية بيروت لبنان / ٦١ نقلا عن كتاب الأذكياء

فقد ذكر الرياشي عن ابن زكريا أن عمر بن أبي ربيعة قد ألح على الثريا بالهوى فشق ذلك على أهلها ثم إن مسعدة بن عمر أخرج عمر إلى اليمن في أمر عرض له، وتزوجت الثريا وهو غائب فبلغه تزويجها وخروجها إلى مصر فقال:

أيها المنكح الثريا سهيلا ∴ عمرك الله كيف يلتقيان

وذكر الأبيات .. ثم حمله الشوق على أن سار إلى المدينة فكتب إليها كتابا في قوهيّة وشنفه وحسنه وبعث به، فلما قرأته بكت بكاء شديدا ثم تمثلت:

بنفسي من لا يستقل بنفسه ∴ ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع

وكتبت إليه تقول:(١)

أتاني كتاب لم ير الناس مثله ∴ أمد بكافور ومسك وعنبر

وقرطاسه قوهيّة ورباطه ∴ بعقد من الياقوت صاف وجوهر

وفي صدره مني إليك تحية ∴ لقد طال تهيامي بكم وتذكري

وعنوانه من مستهام فؤاده ∴ إلى هائم صب من الحزن مسعدي

وأخرى تجيبه على كتابه إليها قائلة(٢):

قد أتانا الرسول بالأبيات ∴ في كتاب قد خط بالترهات

جائر الطرف إن نظرت وماطر ∴ فك عندي بصادق النظرات

غرغيري فقد عرفت لغيري ∴ عهدك الخائن القليل الثبات

والرسالة تؤكد ما عرف عن عمر وشخصيته التي لا تعرف الثبات على محبوبة واحدة، ورغم أن هذه الرسائل تصور عواطف المحبين ومشاعرهم،

---

(١) الأغاني/ ١١٨ – ط بيروت وقد حوي كتابه إلى الثريا قوله :

كتبت إليك من بلدي ∴ كتاب مولاه كمد
كئيب وآكف العينين ∴ ن بالحسرات منفرد
يؤرقه لهيب الشوق ∴ ق بين السحر والكيد
فيمسك قلبه بيد ∴ ويمسح عينه بيد

القوهي : ضرب من الثياب بيض، والقوهية على ذلك قطعة من الثياب بيضاء اللون:

(٢) المحاسن والأضداد/ ١٦٢

فإنها كانت سببا في الشقوة والعذاب وحرق الوجد التي تودي بهم أيضا ، فهذا هو الحرث بن الشريد كان يعشق عفراء بنت أحمد فلما عيل صبره كتب إليها[١] :

صبرت على كتمان حبك برهة ∴ وبي منك في الأحشاء أصدق شاهد

هو الموت إن لم يأتني منك رقعة ∴ تقوم لقلبي في مقام العوائد

فلما وصلتها الرقعة كتبت إليه :

كفيت الذي تخشى وصرت إلى المنى ∴ ونلت الذي تهوى برغم الحواسد

فوالله لولا أن يقال تظننا ∴ بي السوء ، ما جانبت فعل العوائد

فلما وصلته الرقعة وضعها على وجهه، فلما شم رائحة يدها شهق شهقة فقضى نحبه، فقيل لعفراء ما كان ضرك لو روّحت عن قلبه وأجبته بزورة قالت منعني من ذلك قولكن عفراء قد صبرت إلى الحرث . فوالله لأقتلن نفسي إثره من حيث لا يعلم بي أحد إلا الله فلحقت به سريعا.

ورسائل العذريين تفيض بتصوير اللوعة والحرمان والشوق إلى لقاء يطفيء لظى الحب وما اضطرم في الفؤاد من عواطف، فالحب المتبادل مادة هذه الرسائل. وانظر أيضا قصة بشر وهند وقيس ولبنى[٢] تجد أن استعار جذوة الغرام أدت بهم إلى الموت.

(١) أخبار النساء /٥٦
(٢) أنظر مبحث الأسلوب

# رسائل الزهد والوعظ

يعرّف الزهد عامة بأنه : ترك زخرف الحياة ومباهجها والتوجه بالعمل الصالح والرجاء والتوسل إلى الله تعالى للدخول في جنات تجري من تحتها الأنهار.(١) والنسك توأم الزهد فيه الورع والتقى.

ولقد وقفت في العصر الإسلامي على رسائل زهدية ووعظية رائقة تصور إلى حد كبير حمل العديد من أفراد العصر الإسلامي أنفسهم على النسك والعبادة ، فأسهروا ليلهم في عبادته ومناجاته سبحانه وأظمأوا نهارهم في طاعته ، وذاقوا لذة القرب منه فهان عليهم متعة الجسد ولذة الطيبات .

وأورد صاحب كتاب "مصارع العشاق" العديد من رسائل الوعظ التي أرسلتها المرأة أو أرسلت إليها، تدور حول عاطفة الحب وتصوير الصبابة وجذوة الهوى التي قد تخرج الإنسان عن رشده.

من ذلك ما روي عن جارية متبتلة متعبدة بالطائف كانت ذات يسار ، وكانت من أجمل العرب، وقع في حبها فتى جميل فلما اشتدت به العلة وبرّح به الوجد أفشى بسره لامرأة حصيفة عاقلة من قومه، وجعلها الرسول إليها، فكتب مصورا لوعته ، فلما وقفت الفتاة على حاله أشفقت عليه، وكتبت إليه رسالة بليغة تصور موقفها من الهوى ، وتأمره بطاعة الله ، والاجتهاد في عبادته سبحانه، فهو السبيل للتغلب على سلطان الهوى ونوازع النفس تقول فيها: مخاطبة المرأة(٢)" ..... قد ظننت ذلك فأبلغيه مني السلام، وقولي: أي أخاه! إني والله قد وهبت نفسي لمليك يكافئ من أقرضه بالعطايا الجزيلة، ويعين من انقطع إليه وخدمه بالهمم الرفيعة، وليس إلى الرجوع بعد الهبة سبيل، فتوسل إلى مولاك ومولاي بمحابه، واضرع إليه في غفران ما قدمت يداك من عمل لم يهبه فيه، ولم يرضه، فهو أول ما يجب عليك أن تسأله، وأول ما يجب عليّ أن أعظك به، فإذا خدمته بقدر ما عصيته طاب لك الفراغ من سؤال شهوات القلوب، وخطرات الصدور،

(١) البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ / محمد علي الصباغ ٣٠٥ / المكتبة العصرية – صيدا – بيروت
(٢) مصارع العشاق ص٥٨ .

فإنه لا يحسن بعبد كان لمولاه عاصياً وعن أمره مولياً ناسياً أن ينسى ذنوبه والاعتذار منها، ويلزم نفسه مسألة الحوائج لعلها داعية له إلى الفتنة إن لم يتداركه الله تعالى بكرمه، فاستنقذ نفسك يا أخي من مهلكات الذنوب، فإن له فضلاً وسع كل شيء، ولست مؤيستك من فضله إن رآك متبتلاً إليه ومما قدمت يداك معتذراً أن يمن بي عليك، فإنه الملك الذي يجود على من ولى عنه بكرمه، فكيف من أقبل إليه، فلا يشك أنه إذا جاد على من ولى عنه، يكون لمن أطاعه مكرماً وإليه وقت الندامة مسرعاً، وما أبقيت لك حجة تحتج بها، فليكن ما أخبرتك به نصب عينك ولا ترادني في المسألة، فلا أجيبك والسلام" .

ومع أن الرسالة تصورإلى أي حد أخذ بعض أفراد المجتمع ــ رجالا ونساء ــ نفسه على الزهد والنسك فيغلب عليها جانب العظة وتنبيه الغافل، بأسلوب قوي جزل، يغلب عليه الإقناع العقلي والقياس النطقي .

ــ وقصة الفتاة التي أعجب بها الحسن بن سابور فراسلها[1] فلما جاءها الرسول عذلته وقالت: ما هذا أو يكتب إلى النساء بمثل هذا ؟ وكتبت كتابا إلى الحسن تضعّف من رأيه وتوبخه وتأمره بالكف عن ذلك وفيه:

ألا أيها النضو المعنى ∴ رويدك في الهوى رفقا قليلا

لنا رب يعذب من عصاه ∴ ويسكن ذا التقى ظلا ظليلا

وكان موسرا فضمن أن يدفع إليها ماله. فقالت للرسول لا حاجة لي في ذلك ولا إليه سبيل قال: وكيف ذاك؟ قالت: ويحك إني كنت عاهدت ابن عمي إن مات ألا أتزوج بعده .. وما كنت لأنقض عهده أبدا فقل لصاحبك أن يقبل على شأنه ويدع ذكر مالا يتم ولا يكون. قال : فرجعت إليه ، فأخبرته ما قالت وحدثته بالقصة فأمسك عنها.

---

(١) مصارع العشاق / لأبي محمد جعفر بن أحمد القارئ ج٢ /٢٩٦/ دار صادر بيروت وأبيات الحسن هي قوله:

فديتك هل إلى وصل سبيل ∴ وهل لك في شفا صب عليل

فعندك منيتي وشفاء سقمي ∴ فداويني فديتك من غليلي

وتكشف الكثير من رسائل الزهد عن قوة إيمان وصدق يقين تدرع به الكثير من الرجال والنساء و حال بينهم وبين الوقوع في شرك المعاصي، رغم حيل الشيطان ووساوسه، فدفعوا الرغبات المحرمة، بالوعظ تارة والنصح أخرى والصبر ثالثة حتى لو أوداهم العشق وصرعهم، كما تكشف عن عدد غير قليل من العباد والنساك ممن لا نعرفهم، يضاف إلى ما نعرفهم لترتفع النسبة ويتأكد لدينا وجود تيار زهدي قوي في العصر الإسلامي والعباسي، يضم فئة كثيرة من الزهاد رجالا ونساء لم تعن البحوث بالإشارة إليهم ودراسة نتاجهم وتجاربهم العاطفية الصادقة، من ذلك قصة الصحابي بشر الحافي[١] والتي تصور مدى تمسك بشر بالعفة والطهر، وكيف حفظه الله من اقتراف الإثم – وسيأتي تفصيل القصة في الفصل الثالث إن شاء الله. وقصة الفتى المتعبد والمفتونة به.[٢] وقصة العاشق التقي[٣]، ومن ذلك أيضا ما كتبه أسيهد ودست الديلمي الشاعر إلى امرأة في صباه قائلا :

ما تقولين في فتى يهواك ∴ ومناه في كل وقت يراك

قد تخلى بالهم فيك ∴ وما يفتر منه اللسان عن ذكراك

**فأجابته[٤]:**

لست ممن يبغي الوصال حراما ∴ إن فعل الحرام كالإشراك

إن طلبت الحلال فينا أطعنا ∴ ك وإلا فاعزل إلى الإمساك

إن خير الأعمال ما كان عقبا ∴ ه نجاة من الأذى والهلاك

---

(١) كان من بني أسيد بن عبد العزى، وكان يختلف إلى رسول الله (ﷺ)، وقد عشقته فتاة من جهينة ذات زوج يقال له سعد بن سعيد ، وكان لها من الحسن والجمال حظ عظيم، فكانت تقعد له كل غداة حتى يجتاز بها لعله أن ينظر إليها، فلما أخذها حبه كتبت إليه وراسلته، مصارع العشاق/ الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين القارئ/ ٢٨٩ وما بعدها طبعة الجوائب الأستانة/ الجزء الحادي والعشرون .

(٢) ذكرت قصته في مصارع العشاق ٢٧٨/٢.

(٣) السابق ١٥/١ وما بعدها .

(٤) ذم الهوى – أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ص٢٧٨ تحقيق مصطفى عبد الواحد الأولى ١٣٨١هـ ، ١٩٦٢م .

ومن تلك الرسائل ما كتبته إحدى النساء لبعض الصالحين بعد أن تعرضت له في الطريق فلم يلتفت إليها فلما كان الليل كتبت له رقعة تقول فيها :" الله الله في أمري، فكل عضو فيّ مشغول بحبك" فلما وقف على الرقعة تشوش باطنه وكتب إليها "إن الله تعالى إذا عصاه العبد أول مرة حلم عليه وإذا عصاه ثاني مرة ستره، وإذا عصاه ثالث مرة غضب عليه غضبا تضيق منه السماوات والأرض فمن ذا يطيق غضب الله سبحانه وتعالى "فلما وقفت على الرقعة لزمت بيتها وتابت إلى الله تعالى.(١)

وبعد. فقد أدت الرسائل دورها في الإصلاح وتنبيه الغافل، وردع الظالم، وكشفت عن صحة معتقد وصدق يقين بالثواب الغمر من الله تعالى، فتعالوا على الرغبات والأهواء والنوازع.

(١) الزهر الفاتح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح /ابن الجوزي ١١٨/٢٢

# الفصل الثاني

## اتجاهات رسائل النساء في العصر العباسي

- رسائل العتاب والاعتذار.
- رسائل الغـــرام.
- رسائل الشكوى والاستعطاف.
- رسائل الزهد والوعظ.
- المكافآت والهدايا.

يصح لي أن أزعم أنَ معظم ما أثر عن المرأة مـــن رســـائل فـــي العصـــر العباسي يدور حول الرسائل الخاصة ، تلك الرسائل التي كانت مجال نشاط ـــ في

هذا العصر ــ لطائفة من الجواري والقيان والشعراء ، ممثله في رسائل العتاب، والإعتذار، والشكوى، ورسائل الغرام ، ولقد نمت تلك الرسائل في هذا العصر ، فأخذت تعالج موضوعات ذاتيه بشيء من التوسع ، كالشكوى والعتاب، والذم والشكر، وكان على رأس هذه الموضوعات:

## العتاب والاعتذار

احتفظت كتب الأدب العربي بالعديد من رسائل العتاب والاعتذارالتي كتبتها المرأة العباسية، والجواري والقيان خاصة ، والتي تكشف عن جرأة تجشمتها ومكانة تبوأتها وحظوة نالتها في قصور الخلفاء والولاة ، تلك الجرأة التي ساقت الكثير منهن إلى تجاوز حد اللياقة في مخاطبة الخلفاء والولاة.

فهذه "مصابيح" الجارية غاضبها عبدالله بن العباس وكان يهواها ثم ترضاها فغلبها الدلال وأبت أن تصالحه فما كان منه إلا أن كتب إليها يتنصل من إغضابها ويذكر أنه لم يرد إزعاجها ثم دعا على من ظلم فردت عليه بتوقيع جرئ إذ كتبت تحت عبارة[١] الدعاء " على الظالم آمين "

وتكشف بعض رسائل النساء عن لون من العتاب اللاذع الذي يحمل في طياته معنى الهجاء من ذلك ما وقّعت به الخيزران جارية المهدي على رسالة عمرو بن مهران – وكان كاتبها – يذكرفي الرسالة نفسه كثيرا ويعلي من قدر ذاته فكتبت إليه[٢] : " .... وقد وصل كتابك تذكر وتذكر ولا تستكثرن شيئا يكون منك، واستدم أحسن ما أنت عليه يدم أحسن ما عندي لك، واعلم أنه قل شيء لم يزد إلا نقص والنقصان يمحق الكثير كما ينمي على الزيادة القليل"

وقد تحقق في التوقيع أهم أركانه وهو احتواؤه على الإجابة بصورة بليغة موجزة.

وقال ابن المعتز : كان لنا مجلس حظ أرسلت بسببه خادمة إلى قينة فأجابت فلما مرت في الطريق وجدت فيه حارسا فرجعت ، فأرسلت إليها أعاتبها . فكتبت

---

(١) الديارات – الشباشتي ٨٧ – تحقيق كوركيس عواد . دار الرائد العربي – بيروت – الثالثة ١٩٨٦ م

(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري –٢٢١ – تحقيق مصطفى السقا ورفيقيه / مطبعة البابي الحلبي مصر – الأولى ١٩٣٨ م

إلي[١]: لم أتخلف عن السير إلى سيدي في عشية أمس لأرى وجهه المبارك ، وأجيب دعاءه ، إلا لعلة قد عرفتها فلانة ، ثم خفت أن يسبق إلى قلبه الطاهر أني قد تخلفت بغير عذر فأحببت أن تقرأ عذري بخطي، ووالله ما أقدر على الحركة، ولا شيء أسر إليّ من رؤيتك والجلوس بين يديك وأنت يا مولاي جاهي وسندي لا فقدت سندي، ولك رأيك في بسط العذر موفقا . وكتبت في أسفل الكتاب.

ألـيس مـن الحرمـان حـظ سـلبته ∴ وأحـوجني فيـه الـبلاء إلى العـذر

فصـبرا فمـا هـذا بـأول حـادث ∴ رمـتني بـه الأقـدار مـن حيـث لا أدري

وهذه" فضل" تعتذر- بأسلوب غاية في الرقة- لأبي يوسف الضرير وأبـي منصور الباخرزي، لكونهما حجبا عنها ولم تعلم بذلك، فانصرفا فلما بلغها الخبـر غمت وكتبت إليهما معتذرة:[٢]

ومـا كنـت أخشـى أن تـروا لـي سـوأة ∴ ولكـن أمـر الله مـا عنـه مـذهب

أعـوذ بحسـن الصـفح مـنكم وقبلنـا ∴ بصـفح وعفـو مـا تعـوذ مـذنب

وقد وفقت الشاعرة في الاعتذر حيث سدت الطريق أمام المعاتب ببيانها أن ما حدث منها عن غير قصد وأنالله سبحانه وتعال إذا أراد شيئا كان، وأنها علـى يقين من حسن الصفح .

ولـ"فضل" مبررها في صرف نظرها عمن تحب إذا ضمهما مجلس واحـد ، فحين عاتبها أبو سعيد بن حميد في ذلك كتبت إليه[٣]:

وعيشك لـو صـرحت باسمك في الهـوى ∴ لأقصـرت عـن أشـياء في الهـزل والجـد

ولكـنني أبـدي لهـذا مـودة ∴ وذاك وأخلـو فيـك بالبـث والوجـد

مخافـة أن يغـري بنـا قـول كاشـح ∴ عـدوم فيسـعى بالوصـال إلى الصـدِّ

ـ وغضب "بنان" على" فضل"- وكانت قد هويته بعد أبي سعيد- في أمـر أنكره عليها فاعتذرت إليه فلم يقبل عذرها فكتبت إليه[٤]:

---

(١) انظر زهر الآداب للحصري ج٤/٢٧
(٢) الإماء الشواعر ص/ ١٦
(٣) الإماء الشواعر/ أبو الفرج الأصبهاني/ ٢٥.
(٤) ذيل الأمالي/ أبو علي القالي ج٢/٨٦، والإماء الشواعر/ ٢٢.

يـــا فضـــل صـــبرًا إنهـــا ميتـــة ∴ يجرعهـــــا الكـــــاذب والصـــــادق

ظـــــن بنـــــان أنـــــني خنتـــــه ∴ روحـــــي إذًا مـــــن بـــــدني طـــــالق

**وقد توعز الجارية إلى أحد الأدباء كتابة رسالة تلطف وعتاب عالى لسانها من ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف لمؤنسة إحدى جواري المأمون لما أوغر صدره عليها لبعض الأمر. يقول فيها[1] :**

قـــد كـــان عتبـــك مـــرة مكتومـــا ∴ فـــاليوم أصـــبح ظـــاهرًا معلومـــا

نـــال الأعـــادي ســـؤلهم لا هنئـــوا ∴ لمـــا رأونـــا ظاعنـــا ومقيمـــا

هـــبني أســـأت فعـــادة لـــك أن تـــرى ∴ متجـــاوزا متفضـــلا مظلومـــا

**وإذا كان من طبيعة العتاب التـودد والتلطـف بغيـة اسـتمالة المعاتـب واسترضائه فهناك من تعاتب عتاب الموبخ المؤنب فها هي إحدى الجواري تكتب إلى من كان يهواها ثم ملَّها وانصرف عنها قائلة[2]:**

بـــالله يـــا نـــاقض العهـــود بمـــن ∴ بعـــدك مـــن أهـــل ودّنـــا نثـــق

واســـوأتا مـــا اســـتجبت لـــي أبـــدًا ∴ إن ذكـــر العاشـــقون مـــن عشـــقوا

لا غرنـــــي كاتـــــبٌ لـــــه أدبٌ ∴ ولا ظريـــــف مهـــــذب لبـــــق

كنـــت بـــذاك اللســـان محتملـــي ∴ دهـــــرًا ولم أدر أنـــــه ملـــــق

(١) معجم الأدباء ٢/ ٩٣ دار الكتب العلمية- بيروت.
(٢) معجم الأدباء ١ج/ ١١٢ الأولى ١٩٩١م.

# الرسائل الغرامية

صورت المرأة العباسية شوقها إلى من تحب ، وأبانت عن مشاعرها وكشفت عن خوالج نفسها، تجاه الرجل ، وكثرت في هذا العصر الرسائل التي تتضمن هذه المعاني خاصة في بيئة الجواري والقيان فقد عبرن بصور مختلفة عن شغفهن ووجدهن بمن هوين و كانت هذه الرسائل والمكاتبات – في كثير من الأحيان وقودا جزلا لإشعال نار الهوى بين المحبين، إذ النفس أميل إلى من يميل إليها ويكبرها ويصور لها أن لهذا المحب مكانة عظيمة في قلبه لا يتبوأها غيره .

فهاهي إحدى الجواري تكتب إلى علي بن الجهم مصورة صدق حبها وما تعانيه فيه من سهاد قائلة[١] :

قلب يمل على لسان ناطق ∴ ويد تخط رسالة من عاشق
مزج المداد بعبرة شهدت له ∴ من كل جارحة بحب صادق
فيمينه تحت الوساد وخده ∴ ويساره فوق الفؤاد الخافق

فالأبيات تعكس تجربة حية، ومشاعرصادقة ، وتصوير عاكس .

وكتبت عريب المغنية إلى إبراهيم بن المدبر تعرب عن حبها وتطلب وصله قائلة: "استوهب الله حياتك قرأت رقعتك المسكينة التي كلفتها مسألتك عن أحوالنا، ونحن نرجو من الله أحسن عوائده عندنا وندعوه ببقائك ونسأله الإجابة، فلا تعوّد نفسك جعلني الله فداءها هذا الجفاء والثقة مني بالاحتمال وسرعة الرجوع". فالرسالة على وجازتها عبرت عن نفسي دنفة محبة صادقة المشاعر[٢] .

وتتخذ أخرى من وصف بعض مظاهر الطبيعة معراجا لتصوير صفات من تهوى قائلة[٣]: "بنفسي أنت وسمعي وبصري، وكل ذلك لك، أصبح يومنا هذا طيبا طيب الله عيشك قد احتجبت سماؤه، ورق هواءه ، وتكامل صفاؤه فكأنه أنت في رقة شمائلك، وطيب محضرك، لا فقدت ذلك منك ،سرك الله وحفظك. "ونقف في هذه الرسالة على حرية اتاحت للمرأة الإفصاح عن مشاعرها في غير ملام،

(١) العقد الفريد ٤٢٦/٦
(٢) الأغاني أبو الفرج ١٧٣/٢٢/ دار إحياء التراث العربي / بيروت / مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية / بدون تاريخ
(٣) الأندية الأدبية ٢٥٩

والكتابة في غير حرج، بأسلوب بديع حافل بالسجع والمزوجه يناسب حالة البهجة التي تعيشها الجارية.

وكتبت فضل إلى سعيد بن حميد معربة عن حبها قائلة:(١)

نفسي فداؤك طال العهد واتصلت ∴ منك المواعيد واللّيان والخلف

الله يعلم أني فيك ساهرة ∴ ودمع عيني فيها بارق يكف

وأخرى تكتب إلى مولاها وقد خرج إلى الشام مصورة شدة أسفها على بعاده وما تعانيه من هم ووجد. (٢)

تفديك تيماء من سوء تحاذره ∴ فأنت مهجتها والسمع والبصر

لئن رحلت لقد أبقيت لي حزنا ∴ لم يبق لي معه في لذة وطر

فهل تذكرت عهدي في المغيب كما ∴ قد شفني الهم والأحزان والفكر

ونلاحظ خلال هذه الرسائل قلق دائم، وشغل وهم ينتاب المرأة، وسهاد ودموع لا ترقأ، وما ذالك إلا لكونها شديد التأثر، سريعة التقلب، مجبولة على القلق وكثرة الهواجس، فهي دائما معنّاة.

وللمرأة كما قال محمد بدر معبدي" قدرات خلاقة وحيوية ربما لا نجدها في الرجل، فقد منحتها قدرة الله الرقة والعذوبة ، وقد اقتضت وظيفة الأمومة أن تكون المرأة أكثر حساسية من الرجل وأسرع استجابة للمؤثرات العاطفية والوجدانية"(٣) .

ومما يدخل في هذا الباب ما تكتبه الجواري والقيان على العصائب والقلانس والمراوح يعبر عن شوق ويسفر عن رغبة . وقد أورد صاحب العقد الفريد ، ستا

---

(١) الإماء الشواعر ٢٢– ورد عليها أبو سعيد قائلا:
يا واصف الشوق عندي فوق ما تجد / دمع يفيض وقلب خافق يجف
جاء في سيرة سعيد بن حميد الذي قلده المستعين ديوان رسائله أن قال بعد وفاة فضل "ما رسائلي المدونة بين الناس إلا من إنشائها(١).

(٢) المستظرف من أخبار الجواري –جلال الدين السيوطي ١٧، تحقيق صلاح الدين المنجد دار الكتاب الجديد/ بيروت/لبنان والشعر لتيماء ،شاعرة محسنة من مولدات المدينة .

(٣) أدب النساء في الجاهلية وصدر الإسلام ص٩ مكتبة الآداب المطبعة النموذجية ١٩٨٣م .

**وعشرين رسالة مكتوبة على العصائب والمعلقات والحمائل[١] فقد كتبت" شعب" على قلنسوة جاريتها "شكل" قولها[٢]:**

**لم ألق ذا شجن يبوح بحبه ∴ إلا حسبتك ذلك المحبوبا**

**حذرا عليك وإنني بك واثق ∴ ألا ينال سواي منك نصيبا**

**وكتبت وصيفة جارية الطائي على عصابتها: [٣]**

**فما زال يشكو الحب حتى حسبته ∴ تنفس في أحشائه وتكلما**

**وأبكي لديه رحمة لبكائه ∴ إذا ما بكى دمعا بكيت له دما**

**ولم يقتصر تصوير الشوق وألم الفراق على الجواري والمغنيات وحسب، فهذا هو الخليفة المهدي يستوحش لفراق الخيزران حين ذهبت إلى مكة في رمضان سنة ١٦١هـ، وأقامت بها موسم الحج، فكتب إليها مع الحجاج. [٤]**

**نحن في غاية السرور ولكن ∴ ليس إلا بكم يتم السرور**

**عيب ما نحن فيه يا أهل ودي ∴ أنكم غيب ونحن حضور**

**فأجدوا السير بل إن قدرتم ∴ أن تطيروا مع الرياح فطيروا**

**فأجابته:**

**قد أتانا الذي وصفتم من ∴ الشوق ولكن ما قدرنا نطير**

**ليت إن الرياح ينقلن شوقي ∴ إليكم وما يكن الضمير[٥]**

---

(١) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ١٣٤/٨ الأولى ١٣٦٠هـ، ١٩٤١م.المكتبة التجارية الكبرى وضعه – محمد سعيد العريان.

(٢) السابق ص١٣٧.

(٣) المستظرف من أخبار الجواري – جلال الدين السيوطي، ص ٣٩

(٤) أعيان الزمان وجبران النعمان في مقبرة الخيزران/وليد الأعظمي– مكتبة الرقيم٢٠٠١م.

(٥) السابق .

# الشكوى والاستعطاف

**تعددت معاني الشكوى في رسائل النساء في العصر العباسي ، لعل أهمـا : شكوى تعدي الغير على حقوقها وعجزها عن درئه، وشـكوى الوجـد وجفـوة الحبيب.**

**ومن نماذجها ما كتبته السيدة زبيدة إلى المأمون تصور ألم الخطب وشـدة الوجد لمصرع ولدها الأمين، وما أصابها جرّاء ذلك من هوان ومذلـة علـى يـد عبدالله بن طاهر الذي عاث في أموالها ودورها فسـادا فصـار الوجـد وجـدين والهوان مضاعفا[1] تقول .**

لخـير إمـام قـام مـن خـير عنصـر ∴ وأفضـل راق فـوق أعـواد منـبر
لـوارث علـم الأولـين وفهمهـم ∴ وللملـك المـأمون مـن أم جعفـر
كتبـت وعـيني تسـتهل دموعهـا ∴ إليـك ابـن عمـي مـن جفـوني ومحجـري
وقـد مسـني ضـر وذل كآبـة ∴ وأرّق عـيني يـاابن عمـي تفكـري
وهمـت لمـا لاقيـت بعـد مصـابه ∴ فـأمري عظـيم منكـر جـد منكـر
سأشـكو الـذي لاقيتـه بعـد فقـده ∴ إليـك شـكاة المسـتهام المقهـر
وأرجـو لمـا قـد مـر بـي مـذ فقدتـه ∴ فأنـت لبثـي خـير رب مغـير
أتـى طـاهر لا طهـر الله طـاهرا ∴ فمـا طـاهر فيمـا أتـى بمطهـر
فـأخرجني مكشـوفة الوجـه حاسـرا ∴ وأنهـب أمـوالي وأحـرق آدري
يعـز علـى هـارون مـا قـد لقيتـه ∴ ومـا مـرّ بـي مـن نـاقص الخلـق أعـور
فـإن كـان مـا أسـدى بـأمر أمرتـه ∴ صـبرت لأمـر مـن قـدير مقـدر
تـذكر أمـير المـؤمنين قـرابتي ∴ فـديتك مـن ذي حرمـة متـذكر

**ولقد أجادت الشاعرة في تصوير تجربتها إذ قدمت بين يدي شكواها ثنـاء على المرسل إليه رغم ما تماريه من غصص، ثم تبعته بتصوير عظم مصابها في وحيدها من ناحية وحماقة عبد الله بن طاهر وتجاوزه حد الأدب واللياقة والحشمة**

---

(١) الكامل في التاريخ –ابن الاثير–ج٥/١٦٨،١٦٩ دار الكتـاب العربـي بيـروت السادسـه ١٤٠٦هـ/١٩٨٦مـ .

في معاملة مثيلاتها من ناحية أخري ، وكأنه عدو يسعى للنيل من عدوه ، ولم تتمالك السيدة زبيدة إزاء هذا الحدث الجلل سوى النيل من ابن طاهر بالدعاء عليه ووصفه بالعور ونقص الخلقة، ثم ختمت أبياتها بتذكير الخليفة بمراعاة حق القرابة فيها ،ولقد أشاعت في القصيدة جوا من الحزن والكآبة بما وفقت إليه من ألفاظ تعكس شدة حزنها من ذلك الكلمات. تستهل دموعها ، جفوني ومحجري، مسني، ضر وذل كآبة، وأرّق، تفكري همت، مصابه، فأمري عظيم ، منكر جد منكر، كما وفقت في تصوير ما لحقها من أذى على يد عبد الله بن طاهر في قولها:

فأخرجني مكشوفة الوجه حاسرا ∴ وأنهب أموالي وأحرق آدري

فالبيت يجمل ما من شأنه أن يوجب العقاب فوق اللوم، فإذا كانت المرأة بعامة من حقها الصون والحماية ، فحق فزوجة الخليفة أوجب وآكد .

ومن النماذج التي تصور عاطفة الأبوة الحانية، ما أجابت به "أم علي الرشيدة، على رسالة بلغتها من ولدها ــ مصورة شدة شوقها إليه وشاكية موجدتها عليه ــ وكان غائبا في بعض أسفاره: (١)

لولا الأمانيّ والتسويف والأمل ∴ ما كان يكنفني سهل ولا جبل

وكلّما اشتد بي نار تعذبني ∴ فليس إلا دموع العين تنهمل

وقد تعللت أسبابا لرؤيتكم ∴ فكيف بي وبكم إن فاتت العلل

وكثيرا ما تختلط الشكوى بالعتاب عندها فهاهي فضل تصور ما تماريه من غصص الحرمان وماتكابده من وجد وفتقول شاكية معاتبة :ــ(٢)

الصبر ينقص والسقام يزيد ∴ والدار دانية وأنت بعيد

أشكوك أم أشكوا إليك فإنه ∴ لا يستطيع سواهما المجهود

(١) خريدة القصروجريدة العصر/ عماد الدين الأصبهاني الكاتب / تحقيق / محمد بهجت الأثري/ مطبعة دار الحرية بغداد ١٩٧٦م ٢/ج٤/ ٦٨٦ . وأم علي الرشيدة ، هي أم علي العبدي: الأديب أبو الحسن ، من أهل العلم والأدب ، كان حاد الذكاء عارفا بعلم العروض والقوافي، قال الشعر وأنشأ الرسائل ولد سنة ٥٢٤هـ

(٢) المستظرف من أخبار الجواري ، جلال الدين السيوطي ص٥٤/والإماء الشواعر – أبوالفرج الأصفهاني –٢٢

"أنا يا أبا عثمان ــ قدمت قبلك ــ في حال التلف وما عدتني ولا سألت عن خبري"٠

وقد أفلحت الأديبة في تصوير ما يعنّيها في أسلوب موجزبليغ ، ولقد عكست المقابلة في البيت الأول شدة وجدها وقلة صبرها على بعاد من تهوى .

وكتبت أخرى تشكو جفوة الحبيب قائلة : "جفوتنا من غير استحقاق للجفاء، وملت إلى غير مذاهب الظرفاء ، وإني لم أزل واثقة بإخائك ، راجية لحسن وفائك، وتحقيق ظن مؤملك أولى بك من الوقوف على تجنبك[١]

فالكاتبة قد عبرت عن غرضها دون تكلف وبأسلوب وجيز بليغ ، عرضت فيه مشكلتها وعاتبت وأملت ووبخت فكان لها ما أرادت بالقول اللطيف، والعبارة المهذبة، والكلمة المعبرة ، والعاطفة الدافقة الفياضة ..

وكتبت مستهام جارية الفضل بن الربيع على تفاحة إليه:

تمنى رجال ما أحبوا وإنني ∴ تمنيت أن أشكو إليه فيسمعا[٢]

وهاهي أخرى تشكو حرارة الوجد وشدة الشوق إلى الجماد فقد دفع المتوكل العباسي إلى جارته "محبوبة" ، تفاحة مغلفة بغالية فقبلتها وانصرفت عن حضرته وبعثت إليه جارية بيدها رقعة فدفعتها إلى المتوكل فإذا بها مكتوب[٣]

ياطيب تفاحة خلوت بها ∴ تشعل نار الهوى على كبدي
أبكي إليها وأشتكي دنفي ∴ وما ألاقي من شدة الكمد
لو أن تفاحة بكت لبكت ∴ من رجفتي هذى التي بيدي
إن كنت لا تعلمين ما لقيت ∴ نفسي فمصداق ذاك في جسدي
فإن تأملته علمت بأن ∴ ليس لخلق عليه من جلد

وكثيرا ما تختلط الشكوى بالاستعطاف، ويكون ذلك حين يصدر عن المرأة ما يوجب اللوم ويستلزم الجفوة والبعد، فتراها ترسل الرسائل بهدف استلال

(١) الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس ٨٤ / بيروت لبنان.
(٢) انظر الشكوى والعتاب وما وقع بين الخلان والأصحاب / لأبي منصور الثعالبي /٣٢ دار الصحابة/ طنطا / الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.
(٣) المستظرف من أخبار الجواري – ص ٦٤. والإماء الشواعر ص، ٣٨ .

سخيمة المحبوب واستعطافه رغبة في الصفاء بعد الكدر، والوصل بعد الجفوة ، ومن أدل الرسائل على ذلك ما كتبته غانية من غواني البصرة تعلق قلبها بفارس ذي مروءة من المهالبة، فرأى منها ما يكره فجفاها مدة ،فأخذت في استرضائه بإرسال عدد من الرسائل والرسل ، ومنها هذه الرسالة التي حمّلتها الحسين بن الضحاك.

وفيها تقول:(١) "بسم الله الرحمن الرحيم " سيدي : تركي الدعاء في صدر رقعتي ينبئ عن تقصيري، ودعائي إن دعوت يكون هجنة ، فلولا أن بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير ، لما كان لما تكلفته خادمتك من كتب هذه الرقعة معنى ، مع إياسها منك وعلمها بتركك الجواب .سيدي ، فجد بنظرة في وقت اجتيازك في الشارع إلى الدهليز ، تحمي بها أنفسا ميتة أسرى واخطط بخط يدك ، بسطها الله بكل فضيلة ، رقعة فاجعلها عوضا من تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنا ذاكرتها ، سيدي، ألست لك محبة ، وبك مدنفة ؟ فإن رجعت مولاي إلى الأشبه بك ، وأنقذتني من عوارض التلف، كنت لك خادمة ، ولك شاكرة."

ونلاحظ حسن أداء الأديبة لفكرتها، وحسن اختيارها للكلمات التي تعكس عواطفها وشدة وجدها وقوة أملها في رضا المحبوب.

ــ ومن رسائل الاستعطاف وقضاء الحوائج أيضا رسالة فاطمة بنت الحسن(٢) إلى فخر الكفاءة أبي الحسين وفيها تقول:" بسم الله الرحمن الرحيم، ثقتي بالله وحده، خشعت لصولة عز المجلس العالي العادلي المؤيدي ...، أعز الله أنصاره، وضاعف اقتداره الدهور، وانقادت لمشيئته تصاريف الأمور، وامتدّت إلى نواله آمال السؤال، وأناخت بفنائه رواحل الرجال، فما إنسان إلا موفور ببره، ولا

---

(١) المحاسن والأضداد/ الجاحظ/٢٨٢/مكتبة ومطبعة دار الهلال/١٤٢٣هـ .

(٢) هي فاطمة بنت الحسن بن علي العطار، أم الفضل المعروفة ببنت الأقرع الكاتبة تـ عام ٤٨٠هـ ، وكانت ذات خط مليح ، وكان أبوها أبو الحسن مقرئا وعطارا من أهل بغداد . وهي في البداية والنهاية فاطمة بنت علي المؤدب .بلغت في عصرها قمة الحضور ، كاتبة وأديبة مثقفة ولذلك اختيرت – وحدها – لتكتب عقد الهدنة بين الروم والمسلمين، وهذا شرف عظيم تحظى به امرأة دون سائر معاصريها من كتاب الرجال – انظر مراحل تطور النثر العربي في نماذجه . د/ علي شلق ٣/٣٠١، ٣٠٢ دار العلم للملايين – بيروت

لسان إلا مسبّح بشكره، ولا آمل إلا مصروف إليه، فأعطاه الله تعالى من الآمال في نفسه وذويه ما لا يرنو إليه طرف، ولا يأتي عليه وصف:

حتى تسير مسير الشمس رايته ∴ وتعتلي باسمه العالي على القمر

ويختم الأرض طرّا طين خاتمه ∴ ويغتدي أمره أمضى من القدر

وبعد أن وصفت كتابتها وتفوقها على سائر أهل زمانها، وقد شنفتها كما قالت "تأمل بذلك" الحظوة من إحماده وجميل الرعايه، قالت "سمع الله سبحانه فيه كل دعاء مستجاب من الأمة الكاتبة، ومن يتعلق عليها من وليدة ومولود وشريف ومشروف ... وتولي عني من غير حق عارفته ما لا يقوم بوسعه ألسنة القائلين، وشكر الشاكرين فإذا أنعم على ما أصدرته من الخدم بلحظة ، وأحسن إليه بلمحة وأدركت حظي ، وحزت أملي والرأي السامي في إجابتي إلى ما سألت وإثباتي في جملة المغمورين بالإحسان من الأدباء والحشم ، والعبيد والخدم علوه وشرفه إن شاء الله تعالى .

والرسالة تبدو عليها أثر الصنعة وسمة التكلف، فنلاحظ الإطالة في التقديم والمبالغة في الدعاء والسجع المتكلف، والجناس والمزاوجة، بيد أنها على أية حال تصور نمطا من الكتابة ساد في أوآخر الدولة العباسية .

# الوصايا والشفاعات

تطلق الشفاعة على كلام الشفيع، والشفيع هوالشافع وصاحب الشفاعة يقال تشفع فلان لفلان في الأمر أي توسل به إليه.

ومن أبلغ ما أثر من شفاعات في العصر العباسي على لسان النساء ما كتبته أم الشريف ، إلى الخليفة المعتضد لما حاصر "آمد"(١) وكان قد تحصن بها ابن أخيها محمد بن أحمد بن عيسى فلما عضته الحرب طلب الأمان فأجابه إليه المعتضد ، ثم وجه شعلة بن شهاب في طلب أم الشريف فلما رأته بكت وضربت بيدها على الأخرى وقالت يا شهاب كأني والله كنتُ أرى ما أرى فإنا لله وإنا إليه راجعون فقال لها: إن أمير المؤمنين قد وجهني إليك. وما ذاك إلا لحسن رأى منه فيك فقالت له: فهل لك أن توصل إليه كتابي هذا بما قلت فيه؟ قال: نعم فكتبت إليه بهذه الأبيات(٢):

قل للخليفة والإمام المرتضى ∴ رأس الخلائق من قريش الأبطح
بك أصلح اللهُ البلاد وأهلها ∴ بعد الفساد وطالما لم تُصْلح
وتزحزحت بك قبة العز التي ∴ لولاك بعد الله لم تتزحزح
وأراك ربك ما تحب فلا ترى ∴ ما لا تحب فجد بعفوك واصفح
يا بهجة الدنيا وبدر ملوكها ∴ هَبْ ظالِميَّ ومُفْسديَّ لمصلح

وقد أجادت الشاعرة طريقة العرض، حين قدمت بين يدي طلبها الثناء على الخليفة والإشادة بذكره ، وبيان أياديه على البلاد ، ثم أردفت ذلك بطلب الشفاعة بأوجز عبارة، وأبلغ أداء ، حيث جاءت على صورة مثل .

---

(١) آمد أو آميدا هي مدينة عتيقة تقع حيث موقع ديار بكر اليوم، في أقصى ما بين النهرين، عرفت المدينة تاريخيا باسمها هذا حتى سيطرة العثمانيين عليها في القرن السادس عشر. واسم (امد او ئامەد بالكردية) ما زال متداولاً بين سكانها الكرد الذين يشكلون غالبية سكان المدينة..

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر/ ابي الحسن علي بن الحسين المسعودي ج ٢/ ٢٨٧ المكتبة العصرية صيدا بيروت ، ١٤٢٥هـ٢٠٠٥م – وأم الشريف شاعرة من شواعر العصر العباسي، ذات عقل راجح ورأي وفصاحة وبلاغة عاصرت المعتضد بالله. انظر: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام /محمد رضا كحاله ج١/ ٢٩٣/ مؤسسة الرسالة.

ـ وكتبت "عنان" جارية الناطفي إلى جعفر بن يحيى البرمكي تطلب منه أن يسأل أباه أن يكلم الرشيد في أن يشتريها فقالت [١].

يـــا لائمـــي جهـــلاً ألا تقصـــر ∴ مـــن ذا علـــى حُـــرِّ الهـــوى يصـــبر
لا تلحـــني أنـــي شـــربت الهـــوى ∴ صـــرفا فممـــزوج الهـــوى يســـكر
أنـــت المصـــطفى مـــن بـــني برمـــك ∴ يـــا جعفـــر الخـــيرات يـــا جعفـــر
لا يبلـــغ الواصـــف في وصـــفه ∴ مـــا فيـــه مـــن فضـــل ولا يحصـــر
مـــن وفـــر العـــرض بأموالـــه ∴ فجعفـــر أموالـــه أوفـــر
ديباجـــة الملـــك علـــى وجهـــه ∴ وفي يديـــه العـــارض المطـــر
يســـتمطر الـــزوار منـــك الغنـــى ∴ وأنـــت بـــالزوار تستبشـــر

ـ ومما كتبته إلى "الفضل بن الربيع "أيضا ليتوسط لها عند الخليفة هارون الرشيد ويحثه على شرائها[٢].

كـــن لـــي هـــديت إلى الخليفـــة سُـــلما ∴ بوركـــت يـــا ابـــن وزيـــره مـــن ســـلم
حـــث الإمـــام علـــى شـــرائي وقـــل لـــه ∴ ريحانـــة زخـــرت لأنفـــك فـــاشمم

والشفاعات تصور غاية ما تصبوا إليه الجواري في ذلك العصر وأمل كـل واحدة في الوصول إلى قصر الخلافة ،نظرا لما تحظى به في القصر مـن مكانـة رفيعة لا تتبوأها مثيلاتها ونداتها خارجه.

(١) الإماء الشواعر/ أبو الفرج الأصفهاني / ١١، ١٣.
(٢) المحاسن والأضداد/ الجاحظ/١٥٦.

# المكافآت والهدايا

لما كان للهدية وقعها الطيب وأثرها المحمود من نفس المهدى إليه ، كثر تبادل الهدايا بين المحبين، وأهل المودات والخلان في العصر ، وذلك لتحقيق منفعة أولتأكيد مودة أو التعبير عن شكر، ولا غرو فالعصر عصر ترف حضاري وثراء عريض، بما فتح الله على أهله من النعم العظيمة ، والخيرات الوفيرة ، التي تصب في قصور الخلفاء وبيت المال من سائرالولايات ، فتهادوا بالكتب المؤلفة، والسيوف الباترة والدروع الحصينة والورود والرياحين والكاسات والجامات النفيسة، وغير ذلك، وكان للمرأة نصيبها من ذلك ، فأرسلت الهدية كرمز مودة وتحبب.

ولعل من أبرز ما أهدت به امرأة في العصر العباسي ما أهدته "برتا بنت الأوتاري" ملكة الفرنجة إلى الخليفة المكتفي العباسي من هدايا ثمينة جعلتها كما قالت "تكرمة له واستجلابا لمودته" وكتبت معها كتابا قالت فيه[١]: " حفظك الله لسلطانه- أيها الملك الجيد العهد، القوي السلطان، من كل أعدائك، وثبت لك ملكك، وأدام سلامتك في بدنك ونفسك، منذ الآن إلى الأبد. أنا برتا بنت الأوتاري، الملكة على جميع ملك الفرنجيين، أقرأ يا سيدي عليك السلام، واعلم أنه جرت بيني وبين ملك إفريقية صداقة لم أكن أتوهم أن ملكا يكون فوقه يملك الأرض إلى هذه الغاية، فإن مراكبي كانت خرجت فأخذت مراكب ملك إفريقية؛ وكان رئيسها خادما يقال له "علي" أسرته ومائة وخمسين رجلا كانوا معه، في ثلاثة مراكب، ووجدته عاقلا فهما، فأعلمني أنك ملك على جميع الملوك، وقد كان صار إلى مملكتي خلق كثير لم يصدقني منهم إلا هذا الخادم الذي يحمل كتابي إليك، وقد بعثت معه هدايا مما في بلدي، جعلتها تكرمة لك واستجلابا لمودتك، وهي: خمسون سيفا، وخمسون ترسا، وخمسون رمحا فرنجية، وعشرون ثوبا منسوجة

---

(١) كتاب التحف والهدايا لأبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين، الكتاب مرقم آليا الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة الباب الحادي عشر- جوجل مصر . وهو أبو احمد وقيل أبو محمد علي المكتفي بالله بن المعتضد بالله بن الموفق العباسي أمه أم ولد تركية ولد سنة ٢٣٦هـ توفي سنة ٢٩٥هـ حارب القرامطة وقاتلهم ببأس وشدة وبتا. بنت الأوتاري ملكة من التسكانا .

بالذهب، وعشرون خادما، وعشرون جارية، وعشرة أكلب كبار لا تطيقها السباع، وسبعة بزاة، وسبعة صقور، ومضرب حرير بجميع آلاته، وعشرون ثوبا معمولة من صوف تكون في صدف يخرج من البحر يتلون ألوانا في كل ساعة من ساعات النهار، وثلاثة أطيار تكون ببلاد فرنجة، إذا نظرت إلى الطعام والشراب المسموم صاحت صياحا منكرا، أو صفقت بأجنحتها حتى يعلم بذلك. وخرز تجتذب به النصول والأزجة بعد بناء اللحم عليها بغير وجع. وعرفني هذا الخادم أن بينك وبين ملك الروم المقيم بقسطنطينية صداقة. وأنا أوسع منه سلطانا وبلدا، وأكثر جنودا، لأن سلطاني على أربع وعشرين مملكة، كل مملكة لسانها مخالف للسان المملكة التي تليها، وفي مملكتي مدينة رومية العظم.

وأنا أسأل الله العون على مصادقتك والصلح بيننا ما أحببت. فإن الأمر في ذلك إليك وقد حملت هذا الخادم سرا يقوله إذا رأى وجهك، وسمع كلامك، ليكون هذا السر بيننا لا أحب أن يقف عليه غيري وغيرك، وعليك أكبر سلام وعلى جميع من معك وكبت الله عدوك وجعله وطاء قدميك والسلام."

والكتاب يدل على صدق نسبته ،إذ الأسلوب أهم ما يميزه ، بساطة التعبير وسهولة اللغة ووضوح المعنى كما أنها تكاد تخلومن الخيال.

ــ كما كثرت الإهداءات في محيط الجواري، فأهدين الورود والتفاح والجامات بغية استمالة ودّ من هوين.

ومن أطرف الهدايا في محيطهن ما أهدته جارية من جواري المأمون وكانت الهدية" تفاحة" فأرسلتها إليه وكتبت معها كتابًا قالت فيه[١]: "إني يا أمير المؤمنين لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك، وتواتر ألطافهم[٢] عليك، فكرت في هدية تخف مؤنتها، وتهون كلفتها، ويعظم خطرها[٣]، ويجلُّ موقعها، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت، ويكمل فيه هذا الوصف، إلا التفاح، فأهديت إليك منها واحدة في العدد، كثيرة في التقرب، وأحببت يا أمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها،

(١) العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي اعتنى به أحمد أمين ورفيقاه ج٣/ ٢٨٨/ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة– الثالثة ١٩٦٥م.
(٢) التواتر: التتابع. واللطفة بالتحريك: الهدية.
(٣) أي قدرها.

وأكشف لك عن محاسنها، وأشرح لك لطيف معانيها، وما قالت الأطباء فيها، وتفنن الشعراء في أوصافها، حتى ترمقها[١] بعين الجلالة، وتلحظها بمقلة الصيانة، فقد قال أبوك الرشيد ﷺ: "أحسن الفاكهة التفاح، اجتمع فيه الصُّفرة الدرية، والحمرة الخمرية، والشقرة الذهبية، وبياض الفضة ولون التبر يلذ بها من الحواس: العين ببهجتها، والأنف بريحها، والفم بطعمها" وقال أرسطاطاليس الفيلسوف عند حضوره الوفاة، واجتمع إليه تلاميذه: "التمسوا لي تفاحة اعتصم بريحها، وأقضي وطري[٢] من النظر إليها". وقال إبراهيم بن هانئ: "ما عُلِّل المريض المبتلي، ولا سُكنت حرارة الثَّكلى[٣]، ولا رُدَّت شهوة الحُبلى، ولا جُمِعت فكرة الحيران، ولا سكنت حنقة الغضبان، ولا تحبب الفتيان في بيوت القيان، بمثل التفاح" والتفاحة يا أمير المؤمنين إن حملتها لم تؤذك، وإن رُميت بها لم تؤلمك، وقد اجتمع فيها ألوان قوس قُزح من الخضرة والحمرة والصفرة وقال فيها الشاعر:

حمرة التفاح مع خضرته ∴ أقرب الأشياء من قوس قزح
فعلى التفاح فاشرب قهوة ∴ واسقنيها بنشاط وفرح
ثم غن الآن كي تطربني ∴ طرفك الفتان قلبي قد قرح

فإذاوصلت إليك يا أمير المؤمنين فتناولها بيمينك واصرف إليها يقينك وتأمل حسنها بطرفك، ولا تخدشها بظفرك ولا تبعدها عن عينك، ولا تبذلها لخدمك، فإن طال لبثها عندك ومقامها بين يديك، وخفت أن يرميها الدهر بسهمه، ويقصدها بصرفه فيذهب بهجتها ويُحيل نضرتها، فكلها هنيئا مرئيا غير داء مخامر. والسلام عليك يا أمير المؤمنين."

فقال المأمون احملوا إليها من كل ما أهدى لنا في هذا اليوم. والجارية قد اجتهدت في أن تجعل رسالتها ذات عمق فكري وبُعد فني بسوق جملة من آراء الغير من خلفاء وحكماء وملوك، فأوردت خبر أرسطو في طلبه التفاح وهو

(١) أي تلحظها.
(٢) الوطر: الحاجة.
(٣) التي فقدت ولدها.

يحتضر، كما أوردت رأي طبي في فوائده ثم أردفته بأبياتا شعرية في وصف طعمه ومنافعه ، مما يدل على سعة ثقافتها وثقافة الكثيرين من جواري العصر ومدى وقوفهن على نفسية المخاطب، فهذه الآراء فوق ما تكشف عن عمق فكري تجعل الرسالة ذات طابع واقعي.

ولم تعن الجارية ببدء رسالتها وختامها عنايتها بمنطقة العرض وهذا جيد في بابه إذ أنها تقف على موضعها ومكانتها في دار الخلافة، فهي مجرد جارية فلا يستحسن منها شغل ذهن الخليفة بمقدمة تعلم ابتداء قلة جدواها، ومُباشرة الموضوع من أمثالها هو الأوفق والأليق، وكما وفقت في التقديم وفقت في الختام فجاء مقتضبا موجزا بليغا مقتصرا على تحية الإسلام والرسالة وُشيت بالمحسنات وتضمنت بعض صور البيان مما زاد في وضوح المعنى.

ويصور الإهداء بالتفاح- من بعض الوجوه- ما وصل إليه المجتمع العباسي من تحلل خلقي خاصة في بيئة الجواري.

فقد أهدت جارية للمهدي تفاحة مطيبة وكتبت فيها(١):

هديـــة مـــني إلى المهْـــدي ∴ تُفاحـــة تقطـــف مـــن خـــدِّي

محمـــرة مصـــفرة طيبـــة ∴ كأنهـــا مـــن جنـــة الخُلْـــدِ

ونلاحظ مدي تبسط الجواري في مخاطبة ومكاتبة الخلفاء وما وصلن إليه من مكانة في بلاطهم.

وقال علي بن الجهم: دخلت على أبي عثمان المازني وعنده جارية كأنها شقة قمر، وبيدها تفاحة معضوضة، فقالت عَرَفْتَ ما أراد الشاعر بقوله:

خـــبريني مـــن الرســـول إليـــك ∴ واجعليـــه مـــن لا يـــنمُّ عليـــك

قلت: ما أعرفه قالت هو هذه: ورمت إليَّ بتفاحة ، فوالله ما وجدت لها جوابا نظير كلامها(٢).

---

(١) العقد الفريد ابن عبد ربه ج٨/ ١١٩ وضع محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى الأولى ١٣٣٦هـ/ ١٩٤١مـ وأجابها المهدي بقوله:

تفاحـــة مـــن عنـــد تفاحـــة ∴ جاءت فما ضـعت فـي الفـؤاد

والله مـــا أدري أأبصـــرتها ∴ يقظان أم أبصرتها فـي الرقـاد

(٢) انظر كتاب التحف والهدايا/ أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين.

**وأهدت امرأة من العجم إلى هوي لها في نوروز وردًا وكتبت إليه: هذا اليوم أحد فتيان الدهر وشاب أقسامه، والقصف فيه عروس، والورد في البرد كالدُّر في النحر، وقد بعثتُ إليك منه مهرًا ليومك، فزوِّج السرور من النفس، والطرب من القلب، ولا تستقل برًا، فإنا لا نستكثر على قبوله شكرًا.** (١)

**وتكشف الهدايا- من بعض الوجوه أيضًا عن توجه المهدي إليه وتسفر عن نفسيته فهذه خزامى جارية "المقين" كانت قد انخلعت عن حياة العبث وأقلعت عن مجالس الشراب، فأهدى إليها عبد الله بن المعتز وردًا ودعاها إلى مجلسه فكتبت إليه مجيبة:**

**أتاني قريض يا أميري محبر ∴ حكى لي نظم الدُّر فُصَّل بالشذر**
**أأنكرت يا ابن الأكرمين إنابتي ∴ وقد أفصحت لي ألسن الدهر بالزجر**
**وأدبني شرخ الشباب ببينه ∴ فياليت شعري بعد ذلك ما عذري**(٢)

**وهذه أخرى أهدت إلى المتوكل حين افتصد يومًا جارية معها جام فيه مكتوب**(٣)**:**

**قطعت عرقا تبتغي صحة ∴ ألبسك الله به العافية**
**فاشرب بهذا الجام يا سيدي ∴ مستمتعًا من هذه الجارية**
**واجعل لمن أهداكها حصة ∴ تحظى بها في الليلة الآتية**

**وتهدي أخرى إلى الحسين بن الضحاك- الخليع- مالاً وطيارًا وثلاثة آلاف دينار وغيرها الكثير لقيامه بالصلح بينها وبين سيدها ضمرة، وسبق أن وقفنا مع رسالتهاإلى هويها بواسطة الحسين، انظر الشكوى والعتاب في العصر العباسي**(٤)**.**

---

(١) الصناعتين /أبو هلال العسكري/ ٢٨١

(٢) الإماء الشواعر٢١، ٢٢- وأبيات ابن المعتز هي:

**رأيتك قد أظهرت زهدًا وتوبة ∴ فقد سمجت من بعد توبتك الخمر**
**فأهديت وردًا كي يذكرعيشة ∴ لمن لم يُمتعنا ببهجتها الدّهر**

(٣) هي قبيحة الرومية، إحدى جواري المتوكل، أم المعتز بالله ، كانت عاقلة فاضلة، خرجت إلى مكة بعد مقتل ولدها المعتز وأقامت بها مدة ثم عادت إلى سامراء. وكانت مكينة ذات حظوة عند المتوكل. انظر: المستظرف من أخبار الجواري. جلال الدين السيوطي./ ٥٧

(٤) الأطيار جمع الطير وهو اسمٌ لجماعَةِ ما يَطير/ انظر تاج العروس

# النصح والعظة

لم تكن المرأة العباسية بمنأى عن الحياة السياسية، فقد شاركت في إبداء الرأي وتقديم المشورة وإسداء النصيحة كما شاركت ــ بالرأي والتوجيه ــ فيما حدث من اضطرابات تعرضت لها الدولة من ثوارت وشق عصا الطاعة. وما احتفظت لنا به كتب الأدب والتاريخ من قطع أدبية رائقة يوقفنا على طرف مما كان لها من مشاركات في الحياة السياسية.

ومن رسائل النصح وردع الخارج عن الطاعة، ما كتبته أم الشريف من رسالة بليغة إلى ابن أخيها محمد بن أحمد وكان قد تحصن بآمد وقد أناخ المعتضد بجنده بها – تنصحه بالدخول في الطاعة ، درأ للفتنة ودفعًا للشر وكتبت في آخر الرسالة هذه الأبيات(١).

اقبل نصيحة أم قلبها وجع ∴ عليك خوفًا وإشفاقا وقل سددا

واستعمل الفكر في قولي فإنك إن ∴ فكرت ألفيت من قولي لك الرشدا

ولا تثق برجال في قلوبهم ∴ ضغائن تبعث الشنآن والحسدا

مثل النعاج خمول في بيوتهم ∴ حتى إذا آمنوا ألفيتهم أسدا

وداو ذلك والأدواء ممكنة ∴ وإذ طبيبك قد ألقى إليك يدا

أعط الخليفة ما يرضيه منك ولا ∴ تمنعه مالا ولا أهلاً ولا ولدا

واردد أخا يشكر ردًا يكون له ∴ ردءًا من السوء لا تشمت به أحدا

وقد أخلصت أم الشريف النصيحة وأبانت عن رغبة قوية في حمل المرسل إليه على قبولها، بدا ذلك واضحا في كل بيت من أبيات القصيدة فقد استهلتها

---

(١) أناخ المعتضد بجنده على آمد– إحدى مدن ديار بكر– وقد تحصن بها محمد بن أحمد بن عيسى، فبثَّ المعتضد جيوشه حولها وحاصرها، ووجه شعلة بن شهاب اليشكري إليه، ليأخذ الحجة عليه، فسار إليه، واتصل الخبر بأم الشريف عمة محمد بن أحمد، فتحدثت إليه في أمر ابن أخيها، ثم كتب معه إليه كتابا لطيفا حسنا أجزلت فيه الموعظة وأخلصت فيه النصيحة، انظر: مروج الذهب ج ٢ / ٤٦٨والخبر يدل على أنه كان مع الأبيات رسالة بليغة ، لم تحتفظ لنا كتب الأدب بنصها.

بالالتماس الذي يحمله فعل الأمر في البيتين الأول والثاني وإضافة الأم إلى النصيحة في البيت الأول يؤكد شدة شفقتها و حرصها على أمنه وسلامته ومنتهى الشفقة والحدب عليه، وأبان الشطر الثاني من البيت الأول عن الدافع للنصيحة ، ثم تكشف له عن طبائع بعض الرجال التي تنطوي على إحن وضغائن وسعى دعوب لإثارة البغضاء وإحداث الشقاق، وأعادت طلبها ثانية في أخر بيت من القصيدة تأكيدًا لرغبتها في حمله على الطاعة .

وها هي أم العلاء الحجازية ترد طلب من أرسل إليها راغبًا الزواج منها وكان شيخا كبير السن بأسلوب منطقي بليغ يكشف عن تلك المفارقة بينهما مما يحول دون تحقيق السعادة فتقول ناصحة(١):

يا صبح لا تبد إلى جُنح ∴ والليل لا يبقى مع الصبح
الشيب لا يُخدع فيه الصبا ∴ بحيلة فاسمع إلى نصحي
فلا تكن أجهل من في الورى ∴ تبيتُ في الجهل كما تضحى

فاستعارت الصبح للشباب والليل للشيب وعكست هذه الاستعارة رؤية الشاعرة في نكاح الشيخ من الشابة إذ ترى في الشيب معركة النهار مع الليل حيث يزول سواد الشعر ليحل محله بياض الشيب.

وها هي "شكلة" ترسل إلى المأمون لما دخل بغداد- وكان قد اختفى إبراهيم ابنها- فبعث المأمون يسألها عن اختفائه ويهددها ويتوعدها إن لم تدل على مكانه فبعثت إلى المأمون ناصحة(٢) "يا أمير المؤمنين أنا أم من أمهاتك فإن كان عصى الله عزوجل فيك فلا تعص الله فيَّ"

وكان سعيد بن حميد يهوى فضل الشاعرة فلما مالت عنه إلى بنان وآصل جارية من جواري القيان فكتبت إليه ناصحة معاتبة مبينة طبيعة القيان وحقيقة أمرهن.

يا حسن الوجه سيء الأدب ∴ شبت وأنت الغلام في اللعب
ويحك إن القيان كالشرك المـ ∴ نصوب بين الغرور والعطب

(١) نزهة الجلساء في اشعار النساء/ جلال الدين السيوطي/ ٢٧ والجنح بضم الجيم جانب الليل.
(٢) هي شكلة بنت شاه أفرند / من ربات الفصاحة والبلاغة. /أعلام النساء ج ٢ /٣٠٣.

بينمـــا تشـــكي إليـــك إذ خرجـــت ∴ بعـــد التشـــكي منهـــا إلى الطلـــب

لا يتصـــــــدين للفقـــــــير ولا ∴ يطلـــــبن إلا معـــــادن الـــــذهب

تلحـــــــظ هـــــذا وذا وذاك وذا ∴ لحـــظ محـــبٍ ولحـــظ مكتســـب[1]

ونصيحتها تفصح عن نفس عالية تتمتع بها الكاتبة إذ تربأ بأبي سعيد ـــ وإن كان قد انصرف عنها – عن السقوط والانحدار إلى مهاوي الرزيلة.

وبعد:

فقد أبانت الدراسة عن عدة فروق بين رسائل المرأة في العصر الإســلامي ورسائلها في العصر العباسي:

ـ فمن ناحية الكم نجد أن رسائل النساء في العصر العباسي تربــو علــى نظيراتها في العصر الإسلامي .وهذا ملحظ طبيعي إذ أن عامل الزمن يتدخل بشكل فاعل في مسألة الكم الأدبي فنحن نعرف أن "العصر الإسلامي" لم يتجاوز المائــة واثنين وثلاثين عاما ،بينما يزيد العصــر العباســي ـ علــى المشــهور علــى الأربعمائة، أضف إلى ذلك أن المرأة في العصر العباسي تجشمت مجالس الرجــال خاصة في بيئة الجواري والمغنيات أما في العصر الإسلامي فهــي وإن حصــلت على قدر من الحرية فهي حرية في غير تبذل ، مما حال بينها وبين التعبير عــن خوالج نفسها وأنّات فؤادها ولا يفوتنا في هذا الملحظ أن نشير إلى دور التــدوين البارز في تخليد العلوم ونقلها إلى المتلقى جيلاً بعد جيل ، في حين انعــدام هــذا العامل أو يكاد في العصر الإسلامي مما كان سببًا في ضياع الكثيــر مــن هــذه الرسائل عبر العصور، فأصبح العديد منها نسيا منسيا.

ـ ما أثر من رسائل سياسية عن المرأة في العصر الإسلامي كان أكثر منه في العصر العباسي.

ـ دارت رسائل النساء ـ في معظمهاـ في العصرين الإســلامي والعباســي حول أمور ذاتية بالمرأة من تصوير مشاعر الرضــا والســخط، والحــب والــبغض، والوصل والهجر، فلم تتجه بها إلى تصوير قضايا عامة تعن للمجتمع الذي تعيش فيه .

---

(١) الإماء الشواعر / ٢٨.

ــ احتوت رسائل العصر العباسي على أغراض لم نجدها في رسائل العصر الإسلامي، كالمكافآت والهدايا، كما احتوت رسائل العصر الإسلامي على أغراض لم نجدها في رسائل العصر العباسي كالرسائل الدينية. وهناك أغراض وجدت بصورة متفاوتة، كرسائل الزهد والوعظ، فبينا نجدها بكثرة في العصر الإسلامي لم نعثر منها إلا على أبيات في العصر العباسي. ولعل السبب في ذلك أن العصر الإسلامي كان قريب عهد بالنبوة والخلافة الراشدة فأخذ أصحابه أنفسهم بالزهد و تعاليم الدين بالقوة وطبقوها تطبيقا عمليا كما تعلموها ، أما العصر العباسي فقد كثرت فية الأهواء ، وامتزجت الثقافات، ومال الأكثرية فيه إلى حياة الترف والدعة والرقة .

ــ تصور العديد من الرسائل في العصرين ما احتفظت به المرأة لنفسها بالكثير من الكرامة ويوضح ذلك من بعض الوجوه ما أثر عنها من رسائل . منها رسائل هند وبشر فقد رفضت هند أن تتزوج بشرا بعد أن انكشف أمرها معه ووقف على الخبر سيد الخلقﷺ[1].وقصة الفتاة التي كانت تهوي فتى من قومها فجعلت تتردد إليه وهو يصرفها ويدفعها حتى مرضت فطلب الفتى من أمه أن تزورها، وتسألها عن سبب علتها، فلما أخبرتها أمه بما طلبه الفتى قالت على البديهة.

يساءلني عن علتي وهو علتي ∴ عجيب من الأنباء جاء به الخُبْرُ

فذكرت الأم لابنها ما قالته فأرسل مع أمه أنه يأذن لها أن تصير إليه فقالت الفتاة[2]:

ويبعدني عن قربه ولقائه ∴ فلما أذاب الجسم مني تعطفا

فلست بآتٍ موضعًا فيه قائلي ∴ كفاني سقامًا أن أموت تلهُفا

(١) ستأتي القصة بتفاصيلها في مبحث الأسلوب إن شاء الله

(٢) موسوعة روائع الأدب العربي/ محمد عبد الرحيم- المودة والغزل عند العرب/ ٢٨٠ نقلاً عن روضة المحبين ونزهة المشتاقين/ ٣٠٣، ٣٠٤.

# الفصل الثالث

## السمات الفنية لرسائل النساء في العصرين الإسلامي والعباسي

- الصياغة التعبيرية (الألفاظ والأساليب).
- المعاني والأفكار.
- الإيقاع والموسيقى.

# السمات الفنية لرسائل النساء في العصرين الإسلامي والعباسي

كشفت الدراسة لرسائل النساء في العصرين محل البحث عن عدة سمات فنية لهذه الرسائل،كان على رأسها ــ المباشرة فلقد خلت معظم رسائل العصرين الإسلامي والعباسي من التمهيد والتقديم، فعمدت المرأة إلى المباشرة، والإفصاح عن غرضها ابتدء، كما أسهم الغرض من الرسالةــ بشكل كبيرـــ في تلك المباشرة، إذ رسائلها تكاد تنحصر في تصوير مشكلاتها الذاتية، والتعبير عن عواطفها وخوالجها النفسية، فلم تعمد إلى التقديم إلا إذا كان الغرض من الرسالة مطلبا شخصيا تأمل تحقيقه، فتقدم بين يدي طلبها مديحا وثناء على المرسل إليه. كما جاء في رسالة أم الشريف إلى المعتضد بالله، إذ ابتدأت رسالتها بالثناء على المرسل إليه قائلة:

قل للخليفة والإمام المرتضى ∴ رأس الخلائق من قريش الأبطح
بك أصلح الله البلاد وأهلها ∴ بعد الفساد وطالما لم تصلح
وتزحزحت بك قبة العز التي ∴ لولاك بعد الله لم تتزحزح
وأراك ربك ما تحب فلا ترى ∴ ما لا تحب فجد بعفوك واصفح
يا بهجة الدنيا وبدر ملوكها ∴ هب ظاليّ ومفسدي لمصلح[1]

ورسالة عنان جارية الناطفي إلى جعفر بن يحيى مستشفعة به ،إذ قدمت بين يدي حاجتها قصيدة من سبعة عشر بيتًا تدور حول مديح جعفر وآل برمك جميعًا، والإشادة بمكانتهم، والدعاء لهم، ثم أبانت عن مطلبها بعد ذلك .

والمباشرة في الرسائل دليل الانطباعية وقلة التكلف ، كما تدل على سيطرة الفكرة على نفس المنشئ وانشغاله بها، لذا فهو معنّى مشغول البال مهتم بما يعبر عن مشاعره وأفكاره.

(١) انظر مبحث الإماء الشواعر/ أبو الفرج الأصبهاني ١١,١٣/ مكتبة المصطفى الالكترونية / التصنيف تراجم الشعراء .

## لغة الرسالة:

ـ من الظواهر البارزة في رسائل العصر العباسي أن معظمها كان شعرًا بينما نجد رسائل العصر الإسلامي تتراوح بين النثرية والشعرية، ولعل الغرض الشعري للرسالة يتدخل بشكل كبير في تحديد اللون الكتابي للرسالة فلكون الموضوع الغالب على رسائل المرأة في العصر العباسي يتصل بموضوع الحب والغرام، وتصوير الشوق وتباريح الهوى وما يستتبع ذلك من: عتاب واعتذار وهجاء وكان تصوير هذه العاطفة عن طريق الكتابة على العصائب والقلانس والتفاح أو تبليغ الصوت في مجلس شراب أو عن طريق الغناء ونحوه، استلزم هذا أن تكون الرسالة شعرا يسهل حفظه والتغني به في آن واحد، بينما نجد العصر الإسلامي ـ خاصة في بداية حكم بني أمية ـ كان أهم ما يميزه أنه فترة اضطراب سياسي ، فكثرت الرسائل بين الولاة والخلفاء وكان للمرأة دورها البارز في الناحية السياسية خاصة في موقعة الجمل التي اشتركت فيها السيدة عائشة- رضي الله عنها، فأرسلت الرسائل نثرًا وردت هي على رسائل.

## حجم الرسالة:

ـ أهم ماتميزت به الرسالة من حيث حجمها أن جل رسائلها الشعرية عبارة عن مقطعات وقصائد قصيرة لم تتجاوز السبعة أبيات، فلم أقف على قصيدة تزيد على ذلك اللهم إلا رسالة عنان إلى جعفر البرمكي فقد بلغت السبعة عشر بيتا، ورسالة أم الشريف إلى المعتضد.

وهذه سمة عامة لرسائل النساء في العصرين ، فلم يؤثر عن المرأة رسائل في صورة قصائد متوسطة الطول فضلا عن الطويلة، ولا غرو فكلا العصرين يقف على معنى البلاغة وأنها تقتضي الإيجاز والرسالة في حقيقتها ماهي إلا خاطرة أو فكرة تلم بالمرسل وأسئلة تتطلب الإجابة وهذه أمور في حقيقتها يمكن صياغتها في صورة موجزة مركزة معبرة في بيتين أو عدة أبيات.

وربما مالت المرأة إلى المقطوعة- كما يقول " عبد الهادي أبو علي "لتميز المقطوعة بالإيجاز وقصر النفس مما يتيح لها أن تبث فيها شحنة عاطفية أو انفعالية أو تنفث فيها آلامها وهمومها وأحزانها... كما تتميز بوحدة الموضوع

والتركيز والتكثيف وهذا ما يجعلها تتناسب مع طبيعة المرأة الملول إذ تميل إلى التعبير عن خواطرها وتطلعاتها في صورة سريعة وتلقائية"[١].

ولعل في اتباع المرأة نظام المقطعات الذي يعتمد ــ غالبًا- على رشاقة الأداء وخفة الوزن تأكيدا على أن المرأة تختلف عن الرجل في قول الشعر، فقد كانت مشاركتها الشعرية تتميمًا لجملة المحاسن التي تتمتع بها من الظرف والدعة والفطنة والكياسة. [٢]

ورغم غلبة المقطعات على رسائل المرأة فقد استطاعت نقل أحاسيسها والتعبير عن مشاعرها، وتصوير التجربة التي خامرت نفسها دون تشعيب يؤدي إلى تشتت الحركة النفسية لديها.

ــ وبالنسبة لطول الرسالة النثرية وقصرها ، فقد كانت رسائل العصر الإسلامي أطول منها في العصر العباسي إذ امتدت بعض رسائله النثرية إلى أكثر من صفحتين، بينما لم تزد مساحة الرسالة في العصر العباسي على السبعة عشر سطرا. ومن نماذج ذلك في العصر الإسلامي رسائل : عائشة الصديقة وأم سلمة ونائلة بنت الفرافصة – رضي الله عنهن .

وكان للطول النسبي في رسائل العصر الإسلامي دور في الإبانة والكشف فاتسعت للشرح والتفسير وإبداء وجهة النظر والاحتجاج للرأي .

ولم يحل قصر الرسالة عموما عن أداء الفكرة التي تنشدها المرأة ــــ في كثير من الأحيان فها هي هند بنت المهلب بن أبي صفرة كانت قد تزوَّجت الحجاج بن يوسف ولما أراد طلاقها أرسل إليها مع أحد أعوانه مائتي ألف دينار مؤخر صداقها وقال للرسول طلقها بكلمتين "كنت فبنت وهذا مالك" فردت على الرسول قائلة "كنا فما حمدنا وبنا فما ندمنا. ويا بشيرالخير هذه المائتا ألف بشارة لك ومن معك على خلاصي من كل بني ثقيف".

---

(١) الغزل في شعر العصر العباسي الأول/ عبد الهادي عبد النبي أبو علي ١٨٣ الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٢) السابق نفس الصفحة .

وقيل إن الخليفة عبد الملك بن مروان أعجب بذكائها وفتنه شوقا جمالها فبعث لها برسالة يخطبها لنفسه فردت عليه قائلة "لقد نقض وضوئي فلست بطاهرة ففهم الخليفة قصدها، وعرف مرادها فأجابها توضئي واغسلي سبع مرات إحداها بالتراب فسيكون الإناء طاهرا بإذن الله فاشترطت هند على عبد الملك أن يقود هودجها الحجاج بنفسه من العراق إلى الشام بعد أن أرسلت إليه" لقد اغتسلت فطهرت".فرسائل هند بنت المهلب رغم وجازتها بليغة أدت المعنى بأسلوب كنائي بليغ.

## سمات رسائل النساء في العصرين الإسلامي والعباسي : من حيث- الصياغة التعبيرية ( الألفاظ و الأساليب ):

تعد "الصياغة التعبيرية" رأس أدوات توصيل الفكرة التي يحملها النص إلى المتلقي ، فضلا عن تمثيلها لطبيعة الفن في العمل الأدبي، ودلالتها على قدرة الشاعر ومدى تمكنه من أدواته، وصوغ معانيه.

وللأسلوب ــ خاصة ــ أهمية كبيرة في العمل الأدبي، وهو ركن أساسي فيه ولأهميته وقف النقاد عليه قديما وحديثا فعرَّفوه، ووضعوا له العديد من الأسس التي بها قوامة، وما يستجاد فيه وما يستهجن فيعرفه أحمد الشايب بكونه "الضرب من النظم والطريقة فيه[١].

ويعكس الأسلوب مدى امتلاك الكاتب لأدواته وقدرته على صب مادته في قالب سليم قوي البناء محكم النسج.

وللأسلوب الدور الأول في التأثير متى كان جزلا مشوقا بليغا.

وبيّن ابن رشيق سُبل إجادة الأسلوب فقال: إن على الشاعر "حسن التأتي والسياسة وعلم مقاصد القول، فإن نسب ذل وخضع وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخل وأوجع، وإن فخر خب ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حنّ ورجع ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان ليدخل إليه من بابه

(١) الأسلوب/ ٤٤/ مكتبة النهضة المصرية الثامنه/ ١٩٩٠م.

ويداخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا".[١].

وإذا كان الأسلوب يختلف باختلاف فنون القول وضروب الكلام فالذي لا خلاف فيه أن إحكام الصنعة وجودة السبك وتماسك البناء هو ما عليه مناط الجمال.

وإذا كان للصياغة هذه الأهمية فمن الضروري الوقوف عليها، لبيان ما تحمله من سمات وخصائص، وتتلخص تلك السمات في النقاط الأتية :ـ

## الرقة والسهولة:

فأسلوب رسائلها يغلب عليه الرقة و السهولة في الألفاظ والتراكيب فهو بعيد عن الإغراب والغموض، وإن كانت الرقة والسهولة سمتين عامتين في رسائل العصرين فقد كان لرسائل المرأة العباسية النصيب الأوفر من هذه السهولة.

فمع قصر الفارق الزمني بين العصرين الإسلامي والعباسي كان هناك بعض الفروق بين الأسلوب في العصرين، فإذا كنا نكاد نعدم وجود الألفاظ القديمة والكلمات الموروثة في الرسائل العباسية فإننا نلحظها بوضوح في كثير من رسائل النساء في العصر الإسلامي وهذا يدل على زاد طيب من اللغة الجزلة والألفاظ الموروثة تزودت به المرأة في العصر الإسلامي ، فالأسلوب قوي محكم النسج، والألفاظ جزلة فصحة ، تحوي بعض الموروث اللغوي من ذلك الكلمات : لفظة، (العيس)،( جحجاح)، (العنقفير)( الحرون)،( غضارفة)،( قوهية)، (يكف)، (كعثب)، واقرأ معي أيضا بعض ما جاء في كتاب أم سلمة إلى عائشة- رضي الله عنهما- حين علمت بعزمها على الخروج إلى البصرة "...إن عمود الدين لا يثاب بالنساء إن مال، ولا يربأ بهن إن صدع حماديات النساء غض الأطراف ،وخفض الأصوات ،وخفر الأعراض، وضم الذيول، وقصر الوهازة، ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك ببعض الفلوات ناصة قعودا من منهل إلى منهل؟ اجعلي بيتك حصنك، ووقاعة الستر قبرك، حتى تلاقيه وأنت على تلك أطوع ما تكونين لله

(٢) العمدة، ج١، ص١٩٩ ط دار الجيل، بيروت .

إذا لزمته ولو ذكرتك قولا من رسول الله ﷺ تعرفينه لنهشت به نهش الرقشاء المطرقة و السلام.فالألفاظ جزلة قوية والأسلوب متين محكم البناء.

وتكتب هند بنت أسماء بن خارجة الفزاري إلى عمران بن موسى بن طلحة ترد خطبته قائلة: "إني والله ما بي عنك رغبة ولكن لا أتزوج إلا من لا يودي قتلاه ولا يرد قضاءه وليس ذلك عندك"(١).

وليس معنى ذلك خلو قاموس المرأة العباسية من الألفاظ الجزلة واللغة الموروثة، وإنما أعني أن نصيب المرأة في العصر الإسلامي من اللغة الجزلة والألفاظ الموروثة كان أوفر ، ولا غرو فنحن نعلم أن المرأة في العصر العباسي قطعت شوطا كبيرا في حياة التحضر والترف ومالت بحكم طبيعتها- خاصة في بيئة الجواري والقيان ــ إلى الرقة والدماثة والليونة والظرف أملا في حظوة تنالها عند خليفة أو أمير، وذلك بما حرصن عليه من التأدب والتزود من الثقافة ، والحذق في فن الأدب والغناء وفنون الطرب والموسيقى ، وأسهمت" دور النخاسة" في الوصول بالجواري والقيان إلى درجات عالية من الرقة والأناقة ، وما حرص عليه أصحابها من تأديب الجواري وتعليمهن فنونا جديدة في الطرب والغناء ، تحمل المتلقي على الإعجاب فكثرت الجواري المتأدبات وجاءت أساليبهن رشيقة المبنى واضحة المعنى. ولا مرية في أن التوقيعات النسائية تُعد من الأدب النَّسوي العباسي المهم؛ فهي تشير إلى وجود أسلوب لغوي بارع في عالم القصور في العصر العباسي، ورعاية الحكام والمقربين منهم للغة العربية، والثقافة المعرفية سواء أكان ذلك يتعلق بالحرائر أم الجواري، فلم تكن المرأة بعيدة – ولاسيما في العصر العباسي الأول والثاني – عن الكتابة الفنية، وقوة التعبير، وسلاسة العبارة، وجزالة التراكيب. :(٢)

فهذه قينة تخلفت عن مجلس دعاها إليه عبد الله بن المعتز فكتبت إليه معتذرة:(٣) "لم أتخلف عن المسير إلى سيدي في عشية أمس لأرى وجهه

(١) بلاغات النساء/ ابن طيفور ص ٩١.
(٢) أدب المرأة في العصر العباسي وملامحه الفنية ، مجلة دمشق المجلد، ٢٦ ، العدد ،الثالث والرابع ، ٢٠١٠م ، بحث للدكتور خالد الحلبوني
(٣) زهر الآداب للحصري ج٤/ ٤٧.

المبارك، وأجيب دعاءه، إلا لعلة قد عرفتها فلانة ثم خفت أن يسبق إلى قلبك الطاهر أني تخلفت بغير عذر فأحببت أن تقرأ عذري بخطي، ووالله ما أقدر على الحركة، ولا شيء أسرَّ إلي من رؤيتك والجلوس بين يديك وأنت يا مولاي جاهي وسندي لا فقدتُ سندي، ولك رأيك في بسط العذر موفقا وكتبت في أسفل الكتاب.

ألـيس مـن الحرمـان حـظٌ سـلبته ∴ وأحـوجني فيـه الـبلاء إلى العـذر

فصـبرا فمـا هـذا بـأول حـادث ∴ رمـتني بـه الأقـدار مـن حيـث لا أدري

ـ وانظر إلى ما كتبته إحدى الجواري لعلي بن الجهم مصورة حبها له.

قلـبٌ يُمـل علـى لسـان نـاطق ∴ ويـد تخـط رسـالة مـن عاشـق

مـزج المـداد بعـبرة شـهدت لـه ∴ مـن كـل جارحـة بحـب صـادق

فيمينـه تحـت الوسـاد وخـده ∴ ويسـاره فـوق الفـؤاد الخـافق

فالأبيات تسري في خفة ورقة وانسيابية وانطباعية في آن واحد.

أما العصر الإسلامي فلم تكد تبلغ فيه الحضارة الإسلامية ما بلغته في العصر العباسي ولم تكثر فيه الجواري وغشيانهن مجالس الخلفاء والولاة وعلية القوم كما أصبح عليه الأمر في العصر العباسي.

وقد صور الجاحظ طبيعة العصرين الأموي والعباسي فأوجز وأبلغ حين قال: الدولة الأموية عربية أعرابية والدولة العباسية عربية أعجمية .

ورغم رقة ألفاظ الرسائل وجزالة بعضها في العصر العباسي نجد أن بعضها الآخر يتدنى مستواه اللغوي إلى السهولة المفرطة بل إلى الركاكة أحيانا.

ومما يعكس تدني الأسلوب أحيانا في رسائل المرأة العباسية ما كتبته إحدى الجواري إلى هويّ لها قائلة:

مـالي رميـت فلـم تصـبك سـهامي ∴ ورميـتني فأصـبتني يـا رامـي

وأخرى تكتب لآخر:

ظلمـتني في الحـب يـا ظـالم ∴ والله فيمـا بيننـا حـاكم

## المواءمة:

ويقصد بها تمكن الأيب من استخدام الألفاظ المواءمة لطبيعة للفكرة التي يعالجها وقد أجادت المرأة في العصرين الإسلامي والعباسي استخدام الألفاظ التي

تعكس مشاعرها المتباينة'،وتكشف عن مكنون نفسها ، وتنسجم وحالتها النفسية وطبيعتها الأنثوية التي تتصف بالحياء وشدة الخفر، وتضن كثيرا بالتعبير عن مشاعرها ومكنون نفسها.

فهذه امرأة قرشية من أهل المدينة أحبت فتى فأرادت كلامه فاستحيت فكتبت إليه:

ألا من عزيزى من هواي ومن قلبي ∴ فقد برحا بي، فاشتكيت إلى ربي

همومي وأحزاني وطول بليتي ∴ بمن غاب عن عيني فطال به نحبي

فديتك لولا خيفة الله في الذي ∴ تكاتمه نفسي لأظهرت ما خبي

فالبيت الأول يصور إلى أي حد ذهب بها الوجد وبرح بها الهوى.

وقد عكست الفاء العاطفة في البيتين الأول والثاني مدى التقارب الزمني بين مصابها في الهوى وما نجم عنه من جوى وهموم وآلام، فقد وفّقت إلى حد بعيد في الوقوف على خصائص الألفاظ واختارت منها ما يعكس ما تماريه من وجد في ليلها ونهارها. من مثل الألفاظ: برحا، اشتكيت، همومي، أحزاني ، طول بليتي ، طال به نحبي، اشتكيت إلى ربي .

ويبدو ذلك في وضوح أيضا في رسالة السيدة زبيدة إلى المأمون مستعطفة شاكية[١].

فرسائل النساء تؤكد امتلاك المرأة لأدواتها وحسن توظيفها اللغة وأن لديها قدرات فنية تستطع خلالها أن تعبر عن مشاعرها المتباينة وتستوي المرأة في العصرين الإسلامي والعباسي في هذا الجانب .

## تنوع الأسلوب :

تنوع أسلوب الرسائل وتلون تلونا فنيا يتوافق فيه السبيل المؤدى مع المضمون، لتحقيق غايات تنشدها المرأة. فمن جملة الأساليب "القصر"[٢] وهو من

---

(١) انظر نص الرسالة في مبحث الشكوى والاستعطاف.

(٢) القَصْر : تخصيص شيء بآخر والهدف منه تمكين الكلام وتقريره في الذِّهْن ويكون القَصْر بأساليب متعدِّدة منها : النَّفي ، والاسْتِثناء ، والعطف بـ ( لا ) أو بـ ( بل )، وتقديم ما حقه التَّأخير ما أنت إلاّ كريم ، ما كريم إلاّ يوسف.

أساليب الإيجاز ويعني تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص والمراد بتخصيص الشيء بالشيء إثبات أحدهما للآخر ونفيه عن غيره وجملة القصر كما قال البلاغيون في قوة جملتين وأنه غالبًا ما يفيد التوكيد، وتمكين الكلام وتقريره في الذهن لدفع ما قد يكون فيه إنكار أو شك[١].

ومن نماذجه ما جاء في كتاب أم سلمة إلى عائشة- رضي الله عنهما-[٢] "من أم سلمة زوج النبي ﷺ إلى عائشة أم المؤمنين، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.... ففي الجملتين قصر، فقد قصرت السلام علي عائشة كما قصرت الحمد والألوهية على الله تعالى، لغرض التخصيص.

ومنه قول نائلة بنت الفرافصة زوج عثمان- ﷺ- فانظروا أين أنتم من الله عز وجل فإنا نشتكي ما مسنا إليه[٣].

ومن نماذجه في العصر العباس ، ما جاء في كتاب السيدة زبيدة إلى المأمون: [٤]

لخير إمام قام من خير عنصر ∴ وأفضل راق فوق أعواد منبر

كتبت وعيني تستهل دموعها ∴ إليك ابن عمي من جفوني ومحجري

سأشكو الذي لاقيته بعد فقده ∴ إليك شكاة المستهام المقهر

فقد قصر كتابتها في البيتين الأولين على المأمون كما قصرت شكايتها في البيت الثالث عليه أيضًا.

ومنه ما كتبته إحدى الجواري إلى المأمون مبينة خصائص التفاح "....فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت، ويكمل فيه هذا الوصف غير التفاح....". [٥]

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح/ عبد المتعال الصعيدي ٢٠/ ٣ الثامنة.
(٢) انظر نص الرسالة في الدراسة الموضوعية.
(٣) انظر نص الرسالة في الدراسة الموضوعية.
(٤) الكامل في التاريخ -ابن الاثير-ج٥/١٦٩،١٦٨ دار الكتاب العربي بيروت السادسه١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
(٥) العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي اعتنى به أحمد أمين ورفيقاه ج٣/ ٢٨٨/ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة- الثالثة ١٩٦٥م. وانظرمبحث الهدايا .

**كما تنوعت الأساليب في رسائلها بين الخبر والإنشاء تبعًا لمقتضى حال المرسل والمرسل إليه و يخضع هذا التنوع لأمور عدة منها طبيعة التجربة التي تعيشها المرأة، والحالة النفسية والشعورية لها والغرض الذي من أجله كُتبت الرسالة.**

**وقد يكون الأسلوب كله خبريا كما جاء في رسالة عائشة- رضي الله عنها- إلى الأشتر. وفيها تقول: "أما بعد، فإنك أول العرب شبَّ الفتنة ودعا إلى الفرقة، وخالف الأئمة، وسعى في قتل الخليفة المظلوم، وقد جاءني كتابك وفهمت ما فيه، وسيكفينك الله وكل من أصبح مماثلاً لك في ضلالك وغيك إن شاء الله" .**

**والرسالة كلها إخبار وحوت مع الإخبار التهديد والوعيد.**

**وقد يمتزج الأسلوب الإنشائي بالخبري في الرسالة لما تتطلبه التجربة ويقتضيه التعبير كما جاء في أبيات أسماء المرّية صاحبة عامر بن الطفيل ترمز بتشوقها إلى وطنها لشوقها وحنينها إلى حبيبها قائلة(١).**

أَيا جَبَلَي وادي عُريعِرَةَ الَّتي ∴ نَأَت عَن نَوى قَومي وَحُقَّ قُدومُها
أَلا خَلَّيا مَجرى الجَنوبِ لَعَلَّهُ ∴ يَداوي فُؤادي مِن جَواهُ نَسيمُها
وَكَيفَ تُداوي الريحُ شَوقاً مُماطِلاً ∴ وَعَينا طَويلاً بالدُموعِ سُجومُها
وَقَولاً لِرِكبانٍ تَميمِيَّةٍ غَدَت ∴ إِلى البَيتِ تَرجو أَن تَحَطَّ جُرونها
بَأَنَّ بِأَكنانِ الرَغامِ غَريبَةً ∴ مُوَلَّهَةً ثُكلى طَويلاً نَئيمُها
مُقَطَّعَةً أَحشاؤُها مِن جَوى الهَوى ∴ وَتَبريحِ شَوقٍ عاكِفٍ ما يَريمُها

**وقد تعددت صور الإنشاء في الرسائل ما بين استفهام وتعجب وإنكار وتوبيخ ونداء وأمر ونهي.**

---

(١) انظر: ذيل الأماني المجلد الثاني / ١٩٧- دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٠٠٢ – حم قدومها: قدر وقضى. نئيمها: صوتها وأنينه أو النئيم: الصوت الضعيف الخفي ــ ما يريمها : ما يزايلها. الجرون: جمع جران، وهو باطن العنق من البعير وغيره، وهو كناية عن القرار في المكان والعدون فيه.

وقد ورد الاستفهام بكثرة في رسائل المرأة في العصرين الإسلامي والعباسي وكان أكثر شيوعًا في رسائل العصر العباسي، وقد خرج كثيرًا من مجرد طلب الفهم لأغراض أخرى كالتعجب والإنكار والتقرير، والاستعطاف.

ومن نماذجه في العصر الإسلامي ما جاء في رسالة أم سلمة إلى عائشة- رضي الله عنهما- حين عزمت على الخروج إلى البصرة. "..... ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك ببعض الفلوات ناصة قعودا من منهل إلى منهل، فالاستفهام يراد به هنا التعجب والإنكار.

وقد يكون لغرض العتاب والاستعطاف كما جاء في كتاب الجارية - التي تزوجها خالد بن الوليد - إلى عبد الملك بن مروان وفيه تقول[١]:

يا ابن الذوائب من أمية والذي ∴ صارت إليه خلافة الجبار
فبم استفزك خالد بحديثه ∴ حتى هممت بأن ترى أطماري
فلئن هزئت بسحق ثوب ناحل ∴ إني لمن قوم ذوي أخطار

وقد يكون لغرض التقرير والاستعطاف كما في رسالة محبوبة ضمرة بن أبي صفرة وفيها تقول: "سيدي ألست لك محبة وبك مدنفة فإن رجعت مولاي إلى الأشبه بك وأنقذتني من عوارض التلف كنت لك خادمة ولك شاكرة".

وقد يخرج إلى التعجب والإنكار، كما جاء في رسالة خزامى إلى عبد الله بن المعتز[٢].

أأنكرت يا ابن الأكرمين إنابتي ∴ وقد أفصحت لي ألسن الدهربالزجر
وأدبني شرخ الشباب ببينه ∴ فياليت شعري بعد ذلك ما عذري

ويكثر اقتران الاستفهام بالنداء كما في رسائل هند وبشر في العصر الإسلامي، ورسائل فضل إلى أبي سعيد بن حميد في العصر العباسي تقول مصورة صدق ودها[٣].

نعم وإلهي إنني بك صبة ∴ فهل أنت يا من لا عُدمت مثيب

---

(١) بلاغات النساء / أحمد بن أبي طاهر بن طيفور/ ٩٢. الإماء الشواعر ٢١، ٢٢-
(٢) الإماء الشواعر /أبو الفرج الأصفهاني/ ٢١، ٢٢ .
(٣) الأغاني/ ٢٢/١٧٣، والإماء الشواعر / ١٤

لـــن أنـــت منـــه في الفـــؤاد مصـــور ∴ وفي العـــين نصـــب العـــين حـــين تغيـــب
فثـــق بـــوداد أنـــت مظهـــر فضـــله ∴ علـــى أن بـــي ســـقما وأنـــت طبيـــب

**وقد يرد الاستفهام ليعكس حالة من القلق تعيشها المرأة من ذلك ما كتبته جارية البارقي لمن تحب(١).**

يـــا أحســـن العـــالم حتـــى متـــى ∴ يرتفـــــع الحـــــب وأنحـــــط
وكيـــف منجـــاتي وبحـــر الهـــوي ∴ مـــذ حـــف لـــيس لـــه شـــط

**تلك بعض صور الاستفهام في رسائل النساء ولعل كثرة استفهامات المرأة ترجع إلى ضعفها وقلة ثقتها بنفسها فتراها ترسل الرسائل مستفهمة بغية ضم صوت المخاطب لصوتها وإشراك المرسل إليه فيما وصلت إليه من رأي**

**ومما ورد بكثرة في رسائل النساء أسلوب "الدعاء على المرسل إليه" وجاء الدعاء على المرسل إليه في رسائلها ليعكس حالة انفعالية لديها ويسهم في تشكيل تجربة حية عاشتها وتبلورت في صورة مكتوبة حية مقروءة كما يعكس ضعفها حين تعجز عن درء خطر أو الانتصاف لنفسها ممن ظلمها فهنا يكون الدعاء أيسر سبلها، فتدخله من بابه الواسع، وتدعو على خصمها دعوات قاسية أليمة.**

**فقد تدعو على من تحب وتهوى لمجرد أن خالفها المسلك فلم يرض بارتكاب مأثم أو الوقوع في محظور، وهذا يتضح في كثير من الرسائل الغرامية، كما جاء في رسالة هند وبشر. فقد حاولت هند وهي امرأة محضة استمالة بشر عن طريق الرسائل والحيل الشيطانية، فلما فشلت حيلها وصرف الله عنه كيدها دعت عليه دعوات تعكس لوعتها وشدة أسفها بل وأنانيتها.**

**فتكتب إليه قائلة(٢):**

أدعـــوك ربـــي ـ كمـــا صـــيرتني شجنـــا ∴ أن يبتليلـــك بهـــوى مـــن لا يوافيـــك
وتشـــتكي محنـــة في الحـــب نازلـــة ∴ وتطلـــب المـــاء ممـــن لـــيس يســـقيك

---

(١) المحاسن والأضداد/ ١٦٠ مكتبة العرفان.
(٢) مصارع العشاق / الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين القارئ/ ٢٨٩ ومـــا بعـــدها طبعة الجوائب الأستانة/ الجزء الحادي والعشرون

بـــلاك ربـــي بـــأمراض مسلســـلة ∴ وبامتنـــــاع طبيـــــب لا يـــــداويك

ولا ســـرورًا ولا يومًـــا تـــرى فرحًـــا ∴ وكـــل ضـــر مـــن الـــرحمَّن يبليـــك

**وأخرى تدعو على زوجها الذي تخلف عن البعث وبلغها أنه استفاد من الغزو جارية وفرسًا تلهى بهما بألا يوفق إلى الرشد ولا يُسدد في عمل، قائلة[١]:**

.....

فأرســـل إلينـــا بالســـراح فإنـــه ∴ منانـــا ولا نـــدعو لـــك الله بالرشـــد

إذا قفـــل الجنـــد الـــذي أنـــت فـــيهم ∴ فـــزادك رب العـــرش بُعـــدًا علـــى بعـــد

**وتدعو جنان ــ التي أحبها أبو نواس- حين غضب عليها ذات يوم من كلام كلمها به فأرسل يعتذر إليها فأجابته بقولها[٢]. "لا بَرَحَ الهجران ربْعك ولا بلغت أملك من أحبتك".**

**ولم يقتصر الدعاء على الخصم على محيط الجواري والقيان فحسب بل تخطاه إلى أمهات المؤمنين وزوجات الخلفاء وعلية القوم وهذا يؤكد ما قلناه سلفًا من أن الدعاء على الخصم دليل ضعف المرأة وقلة حيلتها فنجد نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان ﷺ تدعو على من قتله في نهاية كتابها إلى معاوية قائلة[٣] ".... ورحمة الله على عثمان، ولعن الله من قتله، وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والمذلة وشفا منهم الصدور".**

**وزبيدة زوجة الرشيد تدعو على عبد الله بن طاهر قائلة:**

أتـــى طـــاهر(لا طهـــرالله طـــاهرا) ∴ فمـــا طـــاهر فيمـــا أتـــى بمطهـــر

**فالمرأة عجول بفطرتها قلقة بأصل خلقتها شكاءة بكاءة، سرعان ما تجابه الخصم بهذه الدعوات تنفيسا عن صدرها، وتخفيفا عن شدة وجدها، وتعبيرًا عن قلة حيلتها وشدة ضعفها.**

---

(١) بلاغات النساء /ابن طيفور/٧٨،٧٩.
(٢) أشهر قصص العشاق والمتيمين/ محمد إبراهيم سليم/٢٦ دار الطلائع للنشر- القاهرة.
(٣) الأغاني ١٦ /٣٢٦ .

فأسلوب رسائل النساء مليء بخصائص الأسلوب التمثيلي التي تظهر فيه الانفعالات النفسانية ، وتكثر فيه حركات العواطف ، ومظهر ذلك أسلوب الاستفهام والتعجب والتأسف وترديد النداء والانفعالات المختلفة .

## كثرة النكات البلاغية والصور الخيالية :

استعانت المرأة بالخيال والتصوير في سبك الكثير من تجاربها النفسية والتعبير عن المشهد أو المشاهد باللفظ المجرد المعبر بجرسه وظلاله ودلالته المعجمية ، وبالنكات البلاغية، والبيانية منها خاصة. ولا غرو" فالخيال قوام جانب عظيم من الأدب، إن لم يكن قوام الجانب الأرقى فيه ، والخيال هو القدرة على انتزاع شتى الصور الذهنية من الواقع واستحضارها والتصرف فيها، وهو من المواهب التي يمتاز بها الإنسان على سائر الأحياء ويمتاز بها النابغة على سائر الناس، فبالمجازات والتشبيهات يتأتى للأديب أن يصور شعوره ويبرز تفكيره، وبالخيال يستطيع الأديب أن يسبك موضوعه ويجمع أطرافه، وينبذ مالا حاجة به إليه من تفصيلات قد تشوه ما هو بسبيله ويضفي ثوبًا من الجمال والانسجام على ما ينشئ" (١).

وللخيال والتصوير في رسائل المرأة عدة ملامح لعل أهمها:

ـ اعتمادها على إيحائية الأصوات والألفاظ ، ومن النماذج التي تصور قدرة المرأة على ذلك، ما جادت به قريحة امرأة تعبر عن أسفها لما بلغها من تعلق زوجها بجارية ، وتلهيه بها عنها فتعرب عن مشاعر الغيرة التي تنتاب الأنثى حين يخامرها شعور بالتعدي على كيانها كزوجة يروقها أن تكون الوحيدة في حياة زوجها، فتراها تطلق سهاما مريشة نافذة ، دفاعًا عن أنوثتها ومكانتها فتكتب إلى زوجها مكيدة له مغيظة(٢).

---

(١) في الأدب المقارن / فخري أبو السعود/ ٢٥٩.

(٢) انظر بلاغات النساء/ ابن طيفور أحمد بن أبي طاهر/ ٧٨، ٧٩/ المكتبة الرضوية الحيدرية/ النجف/ ١٣٦١هـ والمحاسن والأضداد للجاحظ مكتبة العرفان مع اختلاف في بعض ألفاظ الرواية. والقصة تدور حول رجل من همدان تزوج ابنة عم له وكان لها محبا فلم يلبث أن ضرب عليه البعث في أزربيجان فأصاب بها خيرًا واستفاد جارية وفرسا فسمى الفرس الورد والجارية حبابة ثم قفل البعث ولم يقفل هو فأتاه ابن عم له فقال ما يمنعك من

لعمري لئن شطت بعثمان داره ∴ وأضحى غنيا بالحبابة والورد
ألا فاقرأه مني السلام وقل له ∴ غنينا بفتيان غطارفة مُرد
إذا شاء منهم ناشيء مد كفه ∴ إلى كفل ريان أو كعثب نهد
بحمد أمير المؤمنين أقرّهم ∴ شبابا وأغزاكم خوالف في الجند
فأرسل إلينا بالسراح فإنه ∴ منانا ولا ندعو لك الله بالرشد
إذا رجع الجند الذي أنت فيهم ∴ فزادك رب العرش بعدًا على بعد

**فقد وفّقت لتخير التعبير الأوفق الذي يعكس نفسيتها المضطربة وهياجها العصبي، من ذلك قولها "غنينا بفتيان غطارفة مرد". فالجملة تحمل رسالة كيدية للزوج غايتها إقلاق خاطره وتكدير صفوه وقض مضجعه ففي الحي فتيان يبذونه قوة ويفوقونه فتوة، ثم تزيد في الكيد بتذكيره بمؤهلات الجمال لديها من نهود الثديين وثقل الردفين وذلك في قولها "إلى كفل ريان أو كعثب نهد"، ثم تصل بالحدث إلى ذروته والمتمثل في التهديد الصريح إذا لم يسرع في القفول إلى أهله ويقضي حاجتهم، وإلا فسيقضونها هم ولا يطلب منه في هذه الحالة إلا التسريح بطلاق أبدي، ثم لا يكن جزاءه بعد ذلك غير الدعاء عليه بالبعد والشقاء، وقد كان الوجدان المنفعل بالموقف هو سبيل التعبير عن الصورة.**

**جمعت المرأة بين الحقيقة والمجاز في تصوير تجاربها، من ذلك ما كتبته إحدى الزوجات ردا على كتاب جاءها من زوجها يخبرها فيه أنه حضر طعاما مع الحجاج تقول فيه(١):**

أتهدي لي القرطاس والخبز حاجتي ∴ وأنت على باب الأمير بطين

---

القفول قال أخشى ابنة عمي أن تحول بيني وبين هذه الجارية وقد هويتها فأنشأ يقول وكتب إليها:

ألا لا أبالي اليوم ما صنعت هند ∴ إذا بقيت عندي حبابة والورد
شديد نياط المنكبين إذا جرى ∴ وبيضاء مثل الريم زينها العقد
فهذا الأيام الهياج وهذه ∴ لموضع حاجاتي إذ انصرف الجند

(١) الأمالي/ أبو على القالي ٢/ ١٣٦/ دار الجيل بيروت، ونقل أحمد زكي صفوت أن هذا الرجل هو عروة بن مسعود الثقفي جد الحجاج لأمه الفارعة بنت همام بن عروة الثقفي انظر جمهرة رسائل العرب نقلا عن وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٣/١ وأورده الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٣٣٧.

إذا غبت لم تذكر صديقاً وإن تقم ∴ فأنت على ما في يديك ضنين
فأنت ككلب السوء جوّع أهله ∴ فيهزل أهل البيت وهو سمين

ومع أن المرأة قد عبّرت عن تجربتها بالتصوير الحقيقي وفي أبيات موجزة فقد عكست ما تريد أداءه من مضمون كما صورت نفسية صاحبتها من مشاعر السخط على الزوج ، بل هي شديدة التأفف منه حالا ومرتحلا، فهو بخيل ضنين على أهله وذويه إذا كا ن حالا بينهم، أناني مشغول بنفسه إذا غاب عنهم، وهو والحال كذلك ككلب السوء الذي لايهمه غير أمر نفسه ، وقد سرت في كل جزئية من الصورة شعور الزوجة في تدفق وقوة وحيوية، فكل كلمة تنبض بمشاعر وأحاسيس صاحبتها.

ومن التجارب التي صورتها المرأة، طبيعة حب بعض الرجال ومما يمثله في محيطها، حب أبي الشعثاء، فقد جاء في روضة المحبين أن رجلا من أهل الكوفة يسمى أبو الشعثاء- أحب امرأة جميلة فلما علمت به كتبت إليه تقول(١):

لأبي الشعثاء حب دائم ∴ ليس فيه تهمة لمتهم
يا فؤادي فازدجر عنه ويا ∴ عبث الحب به فاقعد وقم
جاءني منه كلام صائد ∴ ورسالات المحبين الكلم
صائد يأمنه غزلانه ∴ مثل ما يأمن غزلان الحرم
صلّ إن أحببت أن تعطي المنى ∴ يا أبا الشعثاء لله وصم
ثم ميعادك بعد الموت في ∴ جنة الخلد إن الله رحم
حيث ألقاك غلاما ناشئا ∴ ناعما قد كملت فيك النعم

والتجربة تصور طبيعة حب أبي الشعثاء المبني على البراءة والعفة والطهر فليس في حبه تهمة لمتهم، لذا يأمنه الناس على نسائهن وبناتهن، إذ لا يعدو الحب عنده من تصوير عاطفة وإبداء مشاعر ليس غير، وتعقد المرأة مشابهة بين حب أبي الشعثاء وغزلان الحرم، فكما أن غزلان الحرم في مأمن من المحرم فالمرأة

(١) انظر- روضة المحبين / ٤٧٢- ورواه ابن الجوزي في ذم الهوى /٢٧٤- وجاء برواية أخرى في الأغاني- والمرأة هي دنانير جارية ابن كناسه.

في مأمن من أبي الشعثاء، ولقد أفلحت المرأة في زجر قلبها عن التعلق بحبه إذ لا مطمح فيه لامرأة وعكس خطاب ما لا يعقل وهو القلب تصوير شدة الحيرة من أمر أبي الشعثاء وحبه، ولم تنته التجربة عند حد التصوير لطبيعة هذا الحب، فلم تبرح المرأة حتى زودته بالنصيحة التي تناسب حاله وتعكس رؤيتها تجاه هذا المحب إذ رأت أن الأجدى له أن يعكف على الصوم والصلاة حتى ينعم برضا الله ويفوز بجنته ثم يكون حيث تراه في الجنة ــ إن منّ الله عليها بها ــ غلامًا ناشئا ناعما كملت فيه النعم.

وتصور "ثواب" تجربتها مع الفراق قسرا عن حبيبها، الذي حال مولاها بينهما، بأسلوب قوي محكم ثائر فتقول(١) :

ولا أبى العذّال إلا فراقنا ∴ وما لهم عندي وعندك من ثار
وسدّ على أبصارنا كل منظر ∴ وقلّت حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ∴ ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

فالتجربة تصور مدي الإصرار على الحب ، وقدرة المرأة على درء أي خطر قد يهدد أمن حبها وبقاءه.

ولم تأنف المرأة من صوغ تجاربها من أمور صغيرة اضطرتها إلى صياغتها طبيعتها المجبولة على الحياء والخفر وعدم الرغبة بالجهر بمطلبها صراحا.

فهذه قينة تكتب إلى هويّ لها معتذرة – لما تأذى من شعر ظهر في وجهها وطال شعر حاجبيها حتى انقلب من الهدب نحو المقلة فنبا عنها وهجرها ثم إنها أصلحت من شأنها وكتبت إليه قائلة(٢):

فديتك سهلت الطريق الذي اشتكى ∴ جوادك فيه للحفى من خشونته
فأصبح بعد الحزن ميدان لذة ∴ يجول كميت اللهو فيه للذته
فإن كنت ذا عزم على أن تزورنا ∴ فبادر وعجل فالهلاك ابن ليلته

(١) الكناية والتعريض / الثعالبي ٢٠/ ٨٣ . الشعرة: انقلاب شَعريٌّ من الهدب نحو المُقلة
(٢) المستظرف من أخبار الجواري ، جلال الدين السيوطي، ص ١٩ .

فقد شبهت صدغيها، وتجوال حبيبها وتعسره فيه بالطريق، على سبيل الاستعارة المكنية وكذلك البيت الثاني، فقد كنت عن إصلاح شأنها بإصلاح الطريق الذي كان يعوق سير الخيل.

وقد زاحمت الرسائل النثرية الرسائل الشعرية في تصوير تجارب المرأة وما يعن لها من أمور، فكتاب إحدى جواري المأمون إليه وهو ما يعرف "برسالة التفاحة" يُعدّ تجربة من أنضج التجارب وأصدقها وأدلها على نفسية صاحبها ، بما حققته له من كثير من وسائل الإجادة من ثراء المضمون، وعمق الفكرة، وقوة الدلالة، والإيقاع المتسق مع ظلال التعبير، فكتابها، صورة حية تتدفق حيوية وتفيض بالمشاعر الصادقة(١).

وكانت الاستعارة من بين الصور البيانية (التشبيه والاستعارة والكناية) أكثر دورانا من غيرها في رسائلها، وتكمن قيمة الاستعارة في كونها تبرز البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً، وتعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجني من الغصن الواحد ألوانًا من الثمر(٢).

ومن نماذجها في العصر الإسلامي قول أم سلمة لعائشة رضى الله عنهما: "قد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكّن عُقيراكِ فلا تصحريها" وقول هند بنت عتبة لما قتل شيبة وعتبة ابنا ربيعة موجهة كلامها لعمرة بنت عبدالله بن رواحة(٣):

لما تناءت بنو فهر على حنق ∴ والموت بينهما ساع الأرواح

كأنما النبح في قتلى مصرعة ∴ سُرْجٌ أضاءت على جدر وألواح

فالشطر الثاني من البيت الأول يحتوي على تشخيص بليغ عكس سرعة نفاذ الموت يوم بدر في جيش المشركين فشبهت الموت بإنسان يسعى لحصد أرواح

---

(١) سبق تحليلها في مبحث الدراسة الموضوعية

(٢) أسرار البلاغة/ عبدالقاهر الجرجاني/ تحقيق محمد رشيد رضا/ ٣٣/٣٢ بتصرف/ دار المعرفة بيروت.

(٣) المحاسن والأضداد – الجاحظ / مكتبة العرفان ص ١٥٢

الأعداء. كما حوى البيت الأخير تشبيها عكس مدى الفجيعة على هذا الجمع الغفير من القتلى.

ومن الاستعارة البليغة أيضا قول أخرى:

سيخطئك الذي حاولت مني ∴ فقطع حبل وصلك من حبالي

ومن الكنايات قول هند بنت المهلب مكنية عن دنس الموضع: "لقد نقض وضوئي فلستُ بطاهرة" ولها في رسالة أخرى مكنية عن إجابتها المطلب أيضًا "لقد اغتسلت فطهرّت"(١).

وكنّت أخرى عن عفاف قومها فقالت:

لا يبطرون لدى اليسار ولا همو ∴ دنس الثياب يرون في الأعصار

وإذا كانت المرأة في العصر الإسلامي فطنت إلى دور البيان في إيضاح الصورة فقد اهتدت إلى ما للبديع من أسرار ودور بارز في التوشية والتزيين لذا فقد احتوت العديد من رسائلها على الكثير من صور البديع كالمقابلة والجناس والطباق والسجع والترصيع والتصريع... الخ.

ومن صوره ما جاء من حسن تعليل في رسالة ليلى إحدى محبوبات ابن أبي ربيعة(٢).

لقد أرسلت في السرِّ ليلي بأن أقم ∴ ولا تنأنا إن التجنب أمثلُ

لعل العيون الرامقات لودنا ∴ تكذب عنا أو تنام فتغفلُ

أناس أمنّاهم فبثوا حديثنا ∴ فلما قصرنا السيّر عنهم تقولوا

ومنه التصدير ــ وهو "أن يرد أعجاز الكلام على صدره فيدل بعضه على بعض، ويسهل استخراج قوافي الشعر إذا كان كذلك، ويكسب البيت الذي يكون فيه أُبهة، ويكسوه رونقا ويزيده مائية وطلاوة"(٣).

ومنه ما جاء في قول أمامة معاتبة...

فلو أن قولاً يكلم الجسم قد بدا ∴ بجسمي من قول الوشاة كلوم

---

(١) انظر الفصل الأول

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة / تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد/٢٤٨.

(٣) العمدة/ ابن رشيق القيرواني ج ٢/ ٣/ دار الجيل بيروت لبنان، بتصرف.

فبين يكلم وكلوم تصدير.

ومن السجع ، وهو تواطؤ الفقرات على حرف روى واحد ، ما جاء في رسالة عائشة- رضي الله عنها- إلى أم سلمة..... أما بعد فما أقبلني لوعظك، وأعرفني لحق نصحك، وما أنا بعميِّة عن رأيك" . فبين وعظك ونصحك، ورأيك، سجع.

ومنه المزاوجة ومن أمثلتها ما كتبته جارية متبتلة إلى من أرسل إليها مصورًا شدة حبه[١] "...فإذا خدمته بقدر ما عصيته طاب لك الفراغ من سؤال شهوات القلوب، وخطرات الصدور، فإنه لا يحسن بعبد كان لمولاه عاصيًا وعن أمره موليًا أن ينسى ذنوبه والاعتذار منها".

كما كثرت النكات البلاغية والبديعية في رسائل النساء في العصر العباسي أيضا كثرة ملحوظة. وما ذاك إلا لوقوف المرأة على أهمية الصورة ودورها البارز في التوضيح والإبانة وقد توسعت في استخدام الاستعارة خاصة ومن نماذجها ما كتبته مرام جارية العباس بن الفضل ردًا على رسالته إليها:

كم قد تعللتُ بالتسويف والأمل ∴ وكم تجرعت من لوم ومن عزل
وكم رجوت إذا ما الدهر باعدني ∴ بأن أُدال على قلبي فلم أدل
لم يكف أن حزت نومي عن مسالكه ∴ فليس يطرق في ريث ولا عجل
أمْسى كتابك مبلولاً وقد درست ∴ منه السطور ورسم الدمع لم يزل

فاستعارت الجارية فعل تجرعت الذي يعني متابعة تجرع الماء كالمتكاره له لما تلاقيه من ويل في هذا الحب، يقال تجرع غصص الغيظ أي كظم غيظه. والبيت الثاني يحوي استعارة تشخيصية أيضا في جملة "الدهر باعدني" وكذلك البيت الثالث في قولها ــ تقصد النوم ــ (فليس يطرق في ريث ولا عجل) كما احتوي البيت الأخير عل كناية عمقت المعنى، واحتوى البيت الثالث على طباق بين ريث وعجل[٢].

---

(١) مصارع العشاق/ أبو محمد جعفر بن أحمد القارئ ج١/١٥.

(٢) المكتبة الشاملة، قسم التراجم والطبقات، المذاكرة في ألقاب الشعراء/ أبو المجد اسعد الشيباني الإربيلي المعروف بمجد الدين النشابي الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع ج ١/ ٦٣.

**ومنها ما كتبته عنان إلى جعفر البرمكي[١]:**

تخفق رايات الهوى بالردى ∴ فوقي وحولي للردى عسكر

يهتز تاج الملك من فوقه ∴ فخرًا ويزهى تحته المنبر

**فجعلت للهوى رايات تخفق و للتاج والمنبر عقلا يفخر ويزهى.**

**ومنها أيضًا ما كتبته إحدى الجواري إلى هوي لها قد تعلق بقينة وهمشها[٢]:**

كنت بذاك اللسان تختلني دهرًا ∴ ولم أدر أنه ملق

**ومن التشخيص أيضًا قول خزامى:**

أأنكرت يا ابن الأكرمين إنابتي ∴ وقد أفصحت لي ألسنُ الدهر بالزجْرِ

**فقد جعلت للدهر لسانًا.**

**ومن التشبيه قول إحدى الجواري[٣].**

وجدي بجمل على أني أجمجمه ∴ وجد السقيم ببرء بعد إدناف

أو وجد ثكلى أصاب الموت واحدها ∴ أو وجد مغترب من بين ألاف

**وقد أضربت الجارية في التشبيه لتصل إلى الصورة المبتغاة، والبيت يحتوي على طباق أيضا بين السقم والبرء.**

**ومن التشبيه المقلوب قول عريب في رسالة إلى هوي لها[٤] "أصبح يومنا طيبًا طيّب الله عيشك قد احتجبت سماؤه، ورق هواءه، وتكامل صفاؤه فكأنه أنت في رقة شمائلك، وطيب محضرك لا فقدت ذلك منك".**

**ومن الكنايات في رسائلها ما كتبته زبيدة أم الأمين إلى المأمون:**

كتبت وعيني تستهل دموعها ∴ إليك ابن عمي من جفوني محجري

وقد مسني ضر وذل كآبة ∴ وأرّق عيني يا ابن عمي تفكري

---

(١) انظر مبحث الشفاعة و معجم الأدباء ١ج/ ١١٢ الأولى ١٩٩١م.

(٢) معجم الأدباء ١ج/ ١١٢ الأولى ١٩٩١م.

(٣) معجم الأدباء ٢/٤٦ اوالشعر لامرأة من بني كلاب يقال لها زهراء كانت تميل إلى إبراهيم الموصلي وتكنى عنه في شعرها بجمل.

(٤) الأندية الأدبية/ ٢٥٩.

فالبيت الأول كناية عن شدة الحزن والأسى لما لاقته على يد عبدالله بن طاهر والثاني كناية عن طول السهاد.

وكما توسعت المرأة العباسية في استخدام البيان فقد توسعت في استخدام البديع.

ومن صوره في رسائلها ما جاء من مجانسة في رسالة الجارية التي أهدت تفاحة إلى المأمون في قولها " فإذا وصلت إليك يا أمير المؤمنين، فتناولها بيمينك واصرف إليها يقينك، وتأمل حسنها بطرفك، ولا تخدشها بظفرك ولا تبعدها عن عينك".

فبين يمينك ويقينك وبين طرفك وظفرك جناس ناقص، كما احتوت الفقرة على سجع زاد في النغم وأحدث إيقاعا جميلا في الأسلوب

ومنه ما كتبته عليّة بنت المهدي إلى غلام لها يقال له طلٌّ وكانت قد هويته.

ويقال إنها مشت إليه على ميزاب طوله عشرون ذراعًا(١).

قد كان ما حُمِّلته زمنا ∴ يا طلّ من كلفٍ بكم يكفي

حتى أتيتك زائرًا عتما ∴ أمشي على حتفٍ إلى حتفِ

فحتف الأولى يراد بها الميزاب وحتف الثانية يراد بها الهلاك والموت وكلمة حتف الأولى تحتوي أيضا على استعارة تشخيصية فقد استعارت كلمة حتف للميزاب لشدة خطورته وسهولة السقوط منه مما يؤدي إلى مصرعها.

ومن صور السجع والذي هو "تواطؤ الفقرات على حرف روي واحد ما جاء في رسالة السيدة زبيدة أم الأمين"... كل ذنب يا أمير المؤمنين- وإن عظم- صغير في جنب عفوك، وكل زلل وإن جلّ حقير عند صفحك، وذلك الذي عودك الله، فأطال مدتك وتمم نعمتك وأدام بك الخير ودفع بك الشر.

---

(١) الفاضل للمبرد.

والميزاب: قناة أو ماسورة عمودية يجري فيها الماء منصرفا من أسطح الدور أو المواضع العالية فينسكب على الأرض بعيدًا عن جدرانها. انظر: قاموس المعاني معجم عربي.

فبين (عفوك وصفحك) سجع وكذلك بين (مدتك ونعمتك) كما أن بين (أدام بك الخير ودفع بك الشر) مقابلة .

كما فطنت المرأة إلى ما ينجم عن الترادف والازدواج من تجاوب صوتي وتناغم إيقاعي بين الفقرات، مما يسهم في الإمتاع ويلذ في الأسماع، فاستعملته في رسائلها. ومن نماذجه عندها ما كتبته جارية إلى المأمون قائلة:- "إني يا أمير المؤمنين لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك، وتواتر ألطافهم عليك، فكرت في هدية تخف مؤنتها، وتهون كلفتها، ويعظم خطرها، ويجلُّ موقعها، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت، ويكمل فيه هذا الوصف، إلا التفاح، فأهديت إليك منها واحدة في العدد، كثيرة في التقرب، وأحببت يا أمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها، وأكشف لك عن محاسنها، وأشرح لك لطيف معانيها"(١).

فالفقرة تحتوي على الكثير من صور الترادف والازدواج فقد زاوجت بين جملة (تهون كلفتها) وجملة (تخف مؤنتها) كما زاوجت بين جملة (يعظم خطرها) وجملة (يجل موقعها) كما زاوجت بين جملة (أعرب لك عن فضلها)، وجملة (أكشف لك عن محاسنها) وغيرها الكثير.

ومن حسن التعليل ما عللت به إحدى الجواري تمزيق رسائل من هويها وراسلها ــ بعد قراءتها ــ حين عاتبها على ذلك بقولها(٢).

يا ذا الذي لام في تخريق قرطاسي ∴ كم مر مثلك في الدنيا على راسي
الحزم تخريقه إن كنت ذا أدب ∴ وإنما الحزم سوى الظن بالناس
إذا أتاك وقد أدى أمانته ∴ فاحفظ أساطيره عن سائر الناس
واشقق كتاب الذي تهواه مجتهدا ∴ فرب مفتضح في حفظ قرطاس

ومنه ماعللت به فضل حين عاتبها أبوسعيد ــ وكان يهواها ــ على صرف نظرها إلى غيره إذا ضمهما مجلس:

وعيشك لو صرحت باسمك في الهوى ∴ لأقصرت عن أشياء في الهزل والجد
ولكنني أبدي لهذا مودة ∴ وذاك وأخلو فيك بالبث والوجد

(١) العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي اعتنى به أحمد أمين ورفيقاه ج٣/ ٢٨٨
(٢) الإماء الشواعر /٣٠.

مخافــة أن يغــري بنــا قــول كاشــح ∴ عــــدوم فيســـعى بالوصـــال إلى الصـــدّ

**ومنه التضمين: وقد عرفه صاحب العمدة بأنه: "قصدك إلى البيت من الشعر أو القسيم فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل. ومن نماذجــه قــول الجارية في رسالتها إلى المأمون تهديه تفاحة(١). "... فــإن طــال لبثهــا عنــدك ومقامها بين يديك، وخفت أن يرميها الدهر بسهمه، ويقصدها بصرفه فيذهب بهجتها ويُحيل نضرتها، فكلها هنيئا مريئا غير داء مخامر" فالجملة الأخيرة صدر بيت لكثيــر عزة، وعجزه: لعزة من أعراضنا ما استحلت(٢).**

**ومنه التصدير: ومن نماذجه ما كتبته فضل إلى سعيد بن حميد.**

فــإن تكــن خنــت عهــدي فــوا أســفا ∴ وقــلَّ مـــني فيـــك الهـــم والأســـف

وإن تبـــدلت مـــني غـــادرًا خلفـــا ∴ فلـــيس منـــك ورب العـــرش لـــي خلـــف

**فبين (أسفا والأسف) في البيت الأول تصدير، وبين (خلفا وخلف) في البيت الثاني تصدير(٣).**

**ومنه قول زبيدة في رسالتها إلى المأمون(٤).**

**ومنه قول أم الشريف:**

بـــك أصـــلح اللهُ الـــبلاد وأهلـــها ∴ بعـــد الفســـاد وطالمـــا لم تُصْـــلح

**ومن التضاد ما كتبته فضل إلى سعيد بن حميد(٥):**

الصـــبر يـــنقص والســـقام يزيـــد ∴ والـــدار دانيـــة وأنـــت بعيـــد

أشـــكوك أم أشـــكو إليـــك فإنـــه ∴ لا يســـتطيع ســـواهما المجهـــود

**وقد تحتوي الرسالة على أكثر من لون بديعي مما يدل على تمكن الكاتبة من فنها فقد كتبت إحدى الجواري لعلي بن الجهم مصورة حبها وشدة شغفها به(١).**

---

(١) العمدة ابن رشيق القيرواني٢/ ٧٣/ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميـد/ دار الطلائـع القاهرة الاولى/٢٠٠٦م.

(٢) انظر ديوان كثير عزة- تحقيق إحسان عباس / ١٠٠ دار الثقافة بيـروت ط ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.

(٣) الإماء الشواعر/ أبو الفرج الأصفهاني/ ٢٤٨.

(٤) انظر مبحث الشكوى والعتاب

(٥) الإماء الشواعر/ أبو الفرج الأصفهاني، ٥٤.

قلبٌ يُمل على لسان ناطق ∴ ويد تخط رسالة من عاشق
مزج المداد بعبرة شهدت له ∴ من كل جارحة بحب صادق
فيمينه تحت الوساد وخده ∴ ويساره فوق الفؤاد الخافق

فالبيت الأول يحتوي على مراعاة نظير "وهو أن يجمع الأديب بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد" فقد جمع بين (القلب واليد واللسان) في بيت ثم جمع بين (الإملاء والكتابة والرسالة) في بيت آخر، كما احتوى البيت الثالث على مقابلة لطيفة فقابل بين (اليمين واليسار)، (وتحت وفوق)، ولا شك أن الطباق والمقابلة يزيدان المعنى وضوحًا، والصورة إشراقًا ورسوخًا.

ومنه التلميح: وهو أن يشار إلى قصة أو شعر من غير ذكره، كقول إحداهن في رسالتها إلى من وعدته بالزواج إذا اقتضى لها ديونها ثم أخلفت وعدها بعد أن فعل:

سيخطيك الذي حاولت مني ∴ فقطع حبل وصلك من حبالي
كما أخطاك معروف ابن بشر ∴ وكنت تعد ذلك رأس مال

فالبيت الثاني فيه تلميح إلى قصة الحسن بن عبدل مع بشر بن مروان والقصة قد وردت في باب الاعتذار(٢).

وبعد فقد أسفر البحث في رسائل النساء بين العصرين الإسلامي والعباسي حول النكات البلاغية عن عدة فروق لعل أهمها: كثرة استخدام المرأة العباسية للنكات البلاغية عنها في العصر الإسلامي وهذا يؤكد ما أصاب العقل العربي في العصر العباسي من تطور ملموس ظهر أثره في نتاج الأدباء والعلماء بعامة، وهذه الكثرة إن خدمت المعنى في بعض المواضع فليست كذلك في بعضه إذ نجد في بعض النماذج تكلفا ظاهرا يجور على المعنى ويفسده كما في رسالة عنان إلى جعفر بن يحيى والتي تبلغ السبعة عشر بيتًا فهي تزخر بالصور البلاغية، مما أرهق المعنى وأخرج النص عن حد الاعتدال تقول فيها:

يا لائمي جهلاً ألا تقصر ∴ من ذا على مرِّ الهوى يصبر

---

(١) العقد الفريد ٤٢٦/٦، ، والإماء الشواعر/ أبو الفرجالأصفهاني / ٢٢.
(٢) انظر الفصل الأول/ الدراسة الموضوعية ،الشفاعات.

لا تلحـــني أنـــي شـــربت الهـــوى ∴ صـــرفا فممـــزوج الهـــوى يســـكر

أحـــاط بـــي الحـــب فخلفـــي لـــه ∴ بحـــر وقـــدامى لـــه أبحـــر

تخفـــق رايـــات الهـــوى بـــالردى ∴ فـــوقي وحـــولي للـــردى عســـكر

ســـيان عنـــدي للـــهوى لائـــم ∴ أقـــل منـــه والـــذي يكثـــر

أنـــت المصـــطفى مـــن بـــني برمـــك ∴ يـــا جعفـــر الخـــيرات يـــا جعفـــر

لا يبلـــغ الواصـــف في وصـــفه ∴ مـــا فيـــه مـــن فضـــل ولا يحصـــر

مـــن وفـــر العـــرض بأموالـــه ∴ فجعفـــر أموالـــه أوفـــر

ديباجـــة الملـــك علـــى وجهـــه ∴ وفي يديـــه العـــارض المطـــر

**ففي البيت الأول تصريع وفي الثاني استعارة تشخيصية في جملة شربت الهوى كما يحوي تضادا بين صرفا وممزوج، وتضادا في البيت الثالث بين خلف وقدام، وفي البيت الرابع استعارة تبعية في جملة تخفق رايات الهوى وكذلك في كلمة عسكر، وفي البيت الخامس طباق بين (أقل ويكثر) وفي البيت السادس جناس بين جعفر الأولى وجعفر الثانية الأولى يراد بها اسم الممدوح والثانية يراد بها النهر الصغير فوق الجدول أو النهر الملآن دلالة على غزارة كرمه[1] هذا بعض ما في القصيدة من نكات بلاغية ولا نجد ذلك في رسائل العصر الإسلامي.**

**ــ عكست النكات البلاغية عند المرأة في العصرين حياة العصر وما يعيشه المجتمع من ترف وتحضر فإذا صورت المرأة في العصر الإسلامي، كثرة عدد القتلى بالسُرجُ التي انعكس بريقها على الجدر والألواح، فإن المرأة العباسية تتأثر في كثير من صورها بالحضارة العباسية والفارسية، إذ تقول عنان في مدح جعفر بن يحيى:**

يهتـــز تـــاج الملـــك مـــن فوقـــه ∴ فخـــرًا ويزهـــى تحتـــه المنـــبر

**فكلمة التاج تعني ما يلبسه ملك الفرس ويكون مرصعا باللؤلؤ والجوهر- فالصورة تعكس مدى التزاوج اللغوي وتأثر العرب بالأجناس الأخرى خاصة الجنس الفارسي .**

---

(١) انظر قاموس معاني الأسماء

ــ تكاد رسائل النساء في العصرين أن تخلو من عمق الخيال ودقة التصوير، ومن الابتكار والجدة والتوليد، وأزعم أن ذلك يعود إلى أن هذه الأمور تحتاج إلى كثير من الدربة والمران وشدة المراس، وكثرة الاطلاع على النماذج الجيدة ومحاولة تمثلها والاستفادة منها ، وهو ماتفتقده المرأة الملولة بطبيعتها، المشغولة بزينتها وأمورها الشخصية .

## تأثر أسلوبها بالروافد التراثية:

ويقصد بالروافد التراثية، استعانة الكاتب في إبداع رسائله بالاقتباس من القرآن الكريم، أو التضمين من الشعر أو الاستشهاد بهما، أو بتلميح إليهما أو باستلهام المعنى القرآني، أو الفكرة الشعرية، ودون إشارة صريحة أو مباشرة(١).

ويقوم التأثر بالقرآن على وجوه متعددة فقد يكون بتضمين الكاتب رسالته معنى جملة من القرآن الكريم. كما في قول عائشة- رضي الله عنها- في رسالتها للأشتر "وسيكفينك الله" فالجملة متضمنة معنى قول الله تعالى ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ .

ومن ذلك قولها في أول رسالتها إلى أهل الكوفة "أقيموا كتاب الله بإقامة مافيه، اتقوا الله واعتصموا بحبله... فالجملة الأخيرة متضمنة معنى قول الله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾.

وقد يكون عن طريق الاستشهاد بالنص القرآني استشهادًا صريحًا كأن يذكر ما يؤكد أن ما أتى به إنما هو من القرآن الكريم كما في تصوير عائشة – رضي الله عنها- لموقف بعض أهل الكوفة منها وتعديهم عليها... " فعاندوا فشهدوا علينا بالكفر، وقالوا لنا المنكر فقرأنا عليهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾النساء آية فقد نصّت على أن الآية من القرآن.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في كتاب نائلة بنت الفرافصة- رضي الله عنها- مصورة مصرع عثمان بن عفان ﷺ، "... وأنشدكم بالله، وأذكركم حقه وحق خليفته الذي لم تنصروه، وبعزمة الله عليكم، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِن

(١) النثر الكتابي/ محمد فتوح أحمد/ ١٦٣. بتصرف.

طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ .الحجرات آية/ ٩

وقد يكون التأثر عن طريق الإلماح والإيماء، ويكون حينئذ دليل تشبع الكاتب بمعاني القرآن الكريم فأصبح القرآن الكريم لكثرة تعهد الكاتب له وحفظه ومدارسته سريع الجريان على لسانه وبالتالي سهل عليه تمثله واستلهامه ، به يفكر وعنه تصدر ملكاته.

كما جاء في رسالة نائلة- رضي الله عنها- السابقة تحث على الأخذ بثأر عثمانﷺ وتدعو على قتلته "وقد أرسلت إليكم بثوبه، وعليه دمه، وإنه والله لئن كَانَ أثم من قتله، لما يسلم من خذله، فانظروا أين أنتم من اللَّه جل وعز، فإنا نشكي مَا مسنا إِلَيْهِ، ونستنصر وليه وصالح عباده". ورحمة اللَّه عَلَى عُثْمَان، ولعن اللَّه من قتله، وصرعهم فِي الدنيا مصارع الخزي والمذلة، وشفى منهم الصدور فالفقرة فيها إلماح إلى قول الله تعالى: " قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "التوبة الاية ١٤ و١٥

ومن الظواهر اللغوية أيضًا تأثر معجمها اللغوي بالمعجم الإسلامي فدار في رسائلها العديد من الألفاظ الإسلامية كالإثم، والذنب، والعقوبة، والإساءة، والغفران، والطاعة ،والجنة، والنار، والصبر... إلى آخر هذه الألفاظ .

ونقف في رسائل العشاق والعذريين خاصة على الكثير من هذه الألفاظ والمصطلحات الإسلامية، فهاهي هند تكتب إلى بشر قائلة[١].

أما تخشى يا بشر الإله فإنني ∴ لفى حسرة من لوعتي وتسهدي

فإن زرتني يا بشر أحييت مهجتي ∴ وربي غفور بالعطا واسع اليد

وترسل ليلى إلى قيس أبياتًا تؤكد صدق ودها وتوصيه بالصبر على ما قضاه الله عليهما من الفرقة والبعاد فتقول[٢].

نفسي فداؤك لو نفسي ملكت إذا ∴ ما كان غيرك يجزيها ويرضيها

(١) مصارع العشاق/ ابو محمد القارئ /٣٨٩

(٢) مصارع العشاق/ ابو محمد القارئ /٣٨٩-+.

صبرًا على ما قضاه الله فيك علي ∴ مرارة في اصطباري عنك أخفيها

**وهذا يؤكد أن تعاليم الإسلام قد أثرت في النفوس، وحالت دون اقتراف ما حرم الله، وارتاحت نفوس- لم تنل سؤلها- باليقين بالثواب العظيم من الله تعالى.**

**وقد استضاءت المرأة في العصر العباسي أيضًا برأي الدين في تأكيد حجتها وتعضيد رأيها. فهاهي فضل تعتذر لسعيد بن حميد وكانا متحابين لتفرسها في وجه غلامه فأنّبها سعيد وغضب عليها فكتبت إليه(١).**

يا من أطلت تفرسي ∴ في وجهه وتنفسي
الويل من متدلل ∴ يزهى بقتل الأنفس
هبني أسأت وما أسأ ∴ ت بلى كإقرار المسي
أحلفتني أن لا أسا ∴ رق نظرة في مجلسي
فنظرة نظرة مخطئ ∴ فما عقوبة من نسى
يا من حكاه الياسمين ∴ وطيب ريح النرجس
اغفر لعبدك ماجنا ∴ ه من اللحاظ الخلس

**فالبيت الخامس يتضمن عقوبة من فعل شيئا ناسيا وقد نص الحديث أن لا شيء عليه فقد قال النبي ﷺ "إن الله تجاوز لأمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"(٢).**

**ونلاحظ رقة الاعتذار التي تكمن في الاعتراف بالذنب بيد أنه عن غير عمدٍ ثم أردفت ذلك بالمدح والثناء على المرسل إليه وطلب العفو صراحا، والأبيات تدل على تمتع الكاتبة بأسلوب جيد على الإقناع العقلي.**

**وبالمقاربة نجد أن نصيب المرأة في العصر الإسلامي من التأثر بالقرآن كان أوفر منها في العصر العباسي ولعل مرد ذلك إلى أن المرأة في العصر الإسلامي وخاصة نساء**

---

(١) المستظرف من أخبار الجواري -جلال الدين السيوطي/ص ٥٦ ، والمحاسن والأضداد ، مكتبة العرفان / ١٧٥ وانظر أبيات أمامة التي كتبتها معاتبة ابن الدميمنة مبحث العتاب.

(٢) نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية / جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي/ ٧٥/،دار الحديث ١٤١٥هـ/١٩٩٥م / الأولى / كتاب الصلاة / باب ما يفسد الصلاة وما يكره فيها

بيت النبوة قد تلقين القرآن غضا طريا عن رسول الله ﷺ وأخذن تعاليم الإسلام عن خير معلم محمد ﷺ فقد خامر الإسلام قلوبهن وانطبعت آياته في صدورهن فتمثلنها.

أضف إلى ذلك أن طبيعة الموضوع فرض على المرأة في العصر الإسلامي أن تحتج لقضيتها فتأتي- وهي في كثير من الأحيان قضايا سياسية - بأنصع الأدلة وأقواها ، ولا دليل أقوى من كلام رب العالمين.

## "الحكى والقص" :

ومن الأساليب التي استعانت بها المرأة أسلوب: "الحكى والقص" ٠

والقصة "حكاية تعتمد على السرد والوصف، وقد يدخل فيها الحوار أحيانًا وهي عرض لفكرة، أو تسجيل لصورة، أو بسط لعاطفة ، مما يرسم قطاعًا خاصًا من المجتمع في ملابسات متباعدة يروحون ويجيئون على مسرح الحياة"(١).

ومما ينبغي التنويه عليه هنا هو غلبة الأقصوصة على القصة فيما ورد عن المرأة من حكي وقص إذ نجد ما ورد عنها يعالج ــ غالبا ــ جانبا واحدا من الحياة لا عدة جوانب فتقتصر على سرد حادثة ذات عناصر جزئية، تندرج تحتها لتؤلف موضوعًا مستقلاً بشخصياته ومقوماته"(٢)

فما ورد عن المرأة من قص في رسائلها كان موجزا اكتفت فيه بتصوير حدث دون تفريع فلم نقف خلال رسائلها على قصة بكل تفاصيلها وشخصياتها وأحداثها إلا في القليل، و مرد ذلك إلى طبيعة المرأة الملول التي لا تركن إلى الرتابة، بجانب أن طبيعة الرسالة لا تحتمل أن يضمنها المرسل قصة طويلة .

وما أثر عن قصص في رسائلها توفرت فيه عناصر القصة، من سرد، وعقدة وحل، وشخصيات كقصة مقتل عثمان ﷺ وقصة هند وبشر، وقيس ولبنى، والجارية المتعبدة والفتى العاشق، ورسالة السيدة عائشة- رضي الله عنها- وهي بالبصرة إلى رجال بأعينهم في واقعة الجمل، فالرسالة تقص ما صار

(١) القصة التاريخية الإسلامية في مصر د/ مسعد محمد الديب ١٩/ الأولى القاهرة ١٩٩٨م.
(٢) السابق نفس الصفحة بتصرف .

إليه أمر أهل البصرة من شتات ومحاولة البعض التعدي عليهـا،وكيف حـال الله بينها وبينهم، والقصة ورد ذكرها في الفصل الأول، الرسائل السياسية(١).

وتصور "قصة هند وبشر" علاقة حب امرأة تسمى هند بنت فهـد ـــ كانـت متزوجة من رجل موسر ــ لرجل من أهل المدينة تقيا ورعًا يقال له بشر الحـافي، كان يتردد على مسجد رسول الله ﷺ ويستمع منه، فأخذت في مراسـلته مصـورة شدة شغفها، وحرارة وجدها وكثرة سهادها ولما آيست منه وخشـي هـو علـى نفسه، ترك ديارها ــ درءا للفتنة وقطعًا لسبيل الشـيطان ــ إلـى بطحـاء مكـة وتمضي القصة في تصوير كيف تفننت هند كي تكون على مقربـة منـه فسـكنت بطحاء مكة حيث يسكن، ولما هاج بلبالها ونفد صبرها سعت لها عجوز في تيسير السبيل للالتقاء ببشر وما إن خلت به حتى شرعت في مراودته فشرع من فوره في الهرب، وبينا هما على هذه الحال دخل عليهما زوجها فقبض عليهما وساقهما إلـى مسجد رسول الله ﷺ، وتثبت عفة بشر وبراءته، فطلقها زوجها بعد أن قص بشـرًا قصته معها، وبعد أن تأكدت براءته تحركت في نفسه كوامن الغريزة، ممـا دفعـه لخطبتها بعد انقضاء عدتها ليكون الحدث الأشد تعقيدًا إذ ترفض هند الموافقة على الزواج منه معللة ذلك بفضيحتها وكشف سترها أمام رسول الله ﷺ، وظل قلب بشر يمور عشقا ووجدًا ، حتى مات وتنكب هند عليه تبكيه وتبكي الفضيلة معه، ثم تلقي بنفسها عليه ويحركوها ليجدوها قد فارقت الحياة فغسلوهما ودفنوهمـا فـي قبـر واحد(٢).

ومن ضرورة القول أن نسوق بعض الرسائل التي وردت في القصة علـى لسان بطلاها ولنبدأها برسالة هند إلى بشر فقد كتبت إليه تصور لواعج الـنفس وما تحمله لبشر من حب جارف قائلة :

.....

(١) انظر ص١٥ ، ١٦ من البحث وانظر رسالتها أيضا إلى رجال بعينهم/ جمهـرة رسـائل العرب في العصور العربية الزاهرة / أحمد زكـي صـفوت/ العصـر الجـاهلى وعصـر صدرالاسلام/٣٢٥/ المكتبة العلمية بيروت

(٢) مصارع العشاق / الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين القارئ/ ٢٨٩ ومـا بعـدها / الجزء الحادي والعشرون / طبعة الجوائب الأستانة

تمـرُّ ببـابي لـيس تعلـم مـا الـذي ∴ أعـالج مـن شـوق إليـك ومـن جهـدي
تمـرُّ رخـى البـال مـن لوعـة الهـوى ∴ وأنـت خلـي الـذرع[1] ممـا بـدا عنـدي
فـديتك فـانظر نحـو بـابي نظـرة ∴ فإنـك أهـوى النـاس كلـهم عنـدي
فـوالله لـو قصـرت عنـا فلـم تكـن ∴ تمـر بنـا أصـبحت لا شـك في اللحـد

**فأجابها الفتى بقوله:**

عليـك بتقـوى الله والصـبر إنـه ∴ نهـي عـن فجـور بالنسـاء موحـد
وصـبرا لأمـر الله لا تقربـي الـذي ∴ نهـى الله عنـه والـنبي محمـد
فـوالله لا آتـي حليلـة مسـلم ∴ إلى أن أدلـي في القبـور وأفقـد
أحـاذر أن أصـلي جحيمـا وأن أرى ∴ صـريعًا لنـار حرهـا يتوقـد
فـلا تطمعـي في أن أزورك طائعـا ∴ وأنـت لغـيري بالخنـاء معـود

**وظلت هند تراسله فلما آيست منه كتبت إليه هذه الأبيات:**

سـألت ربـي فقـد أصـبحت لـي شـجنا ∴ أن تبتلـي بهـوى مـن لا يباليكـا
حتـى تـذوق الـذي قـد ذقـت مـن نصـب ∴ وتطلـب الوصـل ممـن لا يؤاتيكـا
رمـاك ربـي بحمّـات مقلقلـة ∴ وبامتنـاع طبيـب لا يـداويكا
وأن تظـل بصـحراء علـى عطـش ∴ وتطلـب المـاء ممـن لـيس يسـقيكا
ولا سـرورًا ولا يومًـا تـرى فرحًـا ∴ وكـل ضـر مـن الـرحمن يبليـك

**وتمضي القصة ــ على هذه الشاكلة ــ تصور خوف بشر عقاب الله إذا هو خضع لهواها، وارتحاله إلى بطحاء مكة وارتحالها على أثره وما كان من أمر زوجها ووقوفه على قصتهما، وما كان من أمر طلاقها، ثم طلبه الزواج منها بعد أن انقضت عدتها، وما كان من رفضها، استمع إلى كتابها إلى بشر تجيبه على رسالته التي يطلب فيها وصلها والزواج منه.**

أتطلـب يـا غـدار وصـلي بعـدما ∴ أسـأت ووصـلي منـك أضـحى مضـيعا
ولـما رجـوت الوصـل منـك قطعتـه ∴ وأسـقيتني كأسًـا مـن الحـزن مترعـا

(١) الذرع : المقدار

وأخجلتني عند النبي محمد ∴ فكادت عيوني أن تسيل وتطلعا

فلما وصلته الأبيات حزن حزنًا شديدًا واشتدت به اللوعة فكتب إليها:

سلام الله من بعد البعاد ∴ على الشمس المنيرة في البلاد

سلام الله يا هند عليك ∴ ورحمته إلى يوم التنادي

وحق الله لا ينساك قلبي ∴ إلى يوم القيامة يا مرادي

فرقي وارحمي مضني كئيبا ∴ فبشر صار ملقى في الوساد

فداوي سقمه بالقرب يوما ∴ فقلبي ذاب من ألم البعاد

وصلى الله ربي كل يوم ∴ على ما جاءنا بالخير هاد

فلما وصلتها الرسالة قرأتها وكتبت إليه تقول:

سلام الله من شمس البلاد ∴ على الصبِّ الموسد في المهاد

فإن ترج الوصال وتشتهيه ∴ فأنت من الوصال على بعاد

فلست بنائل مني وصالا ∴ ولا يدنو بياضك من سوادي

ولا تبلغ مرادك من وصالي ∴ إلى يوم القيامة والتنادي

والقصة محبوكة الأطراف مكتملة العناصر جيدة الصياغة متسلسلة تسلسلاً فنيًا وطبيعيًا حتى النهاية، وهي بما تحويه من عناصر الإجادة من حبكة قصصية جيدة وعنصر التشويق، والخيال والتشخيصي، تعدّ نموذجًا رائعًا للحب العفيف الطاهر، الذي يحمل أصحابه على العفاف، وكانت تعاليم الإسلام وقيمه رأس المحركات لهذا العفاف وحمل النفس على الفضيلة والصون.

ومما لا شك فيه أن هذه الرسائل عامل من عوامل الكشف والإبانة عن مكنون النفوس ودخائل الذات من ناحية، كما تبرهن على قدرة المرأة على القريض وسبك مشاعرها في أسلوب قصصي أخاذ من ناحية أخرى.

وإذا قمنا بموازنة بين القصة في العصر الإسلامي والقصة في العصر العباسي من ناحية الأسلوب القصصي يتضح الآتي:

القصة في العصر الإسلامي متعددة الاتجاهات ففيها القصة الغرامية والقصة السياسية والقصة الاجتماعية وقصص الزهاد، وهذا يعكس حياة المسلمين في

عمومها في العصر الإسلامي من الميل نحو الجد والبعد عن حياة اللهو والعبث. ومن المؤكد أن المجتمع في العصر الإسلامي لم يكن قد تأثر تأثرا ملحوظا بالتيار الحضاري والتزاوج الثقافي والفكري، ولم يكن قد اكتظ بالجواري والقيان الذي أصبح سمة العصر في المجتمع العباسي، فعاش العباسيون حياة يسودها الترف الحضاري خاصة في عصره الأول، فرسائل العصر العباسي يقل فيها التنوع إذ تقتصر غالبا على القصة الغرامية.

وإذا أضفنا مسألة الكم في موضوع الموازنة، نجد رجحان كفة القصص الإسلامي أيضًا عنها في العصر العباسي، ويعزى ذلك إلى الحرية التي عاشتها المرأة العباسية فوجدناها تغشى مجالس الرجال وتهفو إلى اللهو، وتعبر عن خوالجها ودخائل نفسها دون تحشم أو تحرج، لذا فقلما نقف لها على صور من مظاهر الكبت وأسباب القلق، ما يجعلها تتجرع غصص الحرمان وتماري أسباب الوجد وعوامل اللوعة، ولم لا وقد أصبح المجتمع العباسي مجتمعًا مفتوحًا تختلط فيه المرأة بالرجل، وبالتالي قل فيه الغزل العذري الذي يظل فيه العاشق يُماري الغصص وينفث الزفرات، ويعز بين العاشقين لقاء برئ، أو رسول ثقف أمين.

وحتى تلك الرسائل التي أُثرت عن محبوبات ابن أبي ربيعة عاتبة أو شاكية لا تصل إلى حد العبث الذي ولدته حياة الترف في العصر العباسي، فحسب محبوبات ابن أبي ربيعة عتابا أو استفهاما عن عدم إلمامه بزيارتهن يقول ناقلا رسالة هند[1]:

أرسلت هند إلينا رسولا ∴ عاتبا أن ما لنا لا نراكا
فيم قد أجمعت عنا صدودا ∴ أأردت الصرم أم ما عداكا؟
إن تكن حاولت غيظي بهجري ∴ فلقد أدركت ما قد كفاكا

على حين نجد في العصر العباسي صالح بن الرشيد يهوي جارية لقرين النخاس فبعث إليها أبو حفص الشطرنجي برقعة يقول فيها[2]:

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة محمد عبدالرحيم ٣١١/ دار الراتب الجامعية بيروت / الأولى ٢٠٠٨ ضمن موسوعة مملكة الشعراء
(٢) الإماء الشواعر/ أبو الفرج الأصفهاني ص٥.

سـل المهيمن خالق الـ ∴ خلق الكثير روازقه

ألا أموت بغصتي ∴ يوما وأنت مفارقه

**فأخذت دواة ودرجا وكتبت إليه:**

**لا بل أراك وأنت لي مملوكة ومعانقة.**

**لو كنت أعلم أن نفسك في المحبة صادقة.**

**لدنوت منك ولو علوت إلى الجبال الشاهقة.**

**ولهان عندي قول ساع ناطق أو ناطقة.**

**هل غير قولهم جميعا أنني لك عاشقة.**

**وكذاك نحن فكان ما ذا عاشق عن عاشقة.**

**وقالت ادفع هذا الجواب إلى الأمير فأتيته بها، فضحك وأمر أن تبتاع له.**

**والقصة تشير إلى غاية ما تصبو إليه الجارية في العصر العباسي وهي أن تكون حظّية لأحد الخلفاء وتصل إلى قصر الخلافة.**

**وهنالك الكثير من الرسائل التي تصور جانبا من خلاعة هؤلاء الجواري وتحللهن لم نشأ ذكرها في لنبو الذوق عنها وضآلة قيمتها الفنية .**

**ـ القصة في العصر الإسلامي كثيرة التفاصيل عنها في العصر العباسي فنجد المرأة في العصر العباسي تكتفي باللمحة والإشارة لحدث يصور الموقف برمته. فلقد روي عن علية بنت المهدي أنها هويت غلاما يقال له "طل" وشاع أمرهما ويقال إنها مشت إليه في إحدى مرات الزيارة- على ميزاب طوله عشرون زراعا وكتبت إليه مصورة ذلك قائلة[1]:**

قد كان ما حُملّته زمنًا ∴ يا طل من كلف بكم يكفي

حتى أتيتك زائرًا عتما ∴ أمشي على حتف إلى حتف

**فالبيتان يشيران إلى قصة حب علية لهذا الغلام.**

## الظرف والفكاهة:

(١) الإماء الشواعر- أبو الفرج الأصفهاني/٥٠،و الفاضل للمبرد/١١٤ . والميزاب: قناة أو ماسورة عمودية يجري فيها الماء منصرفا من أسطح الدور أو المواضع العالية فينسكب على الأرض بعيدًا عن جدرانها. انظر قاموس المعاني – معجم عربي .

احتوت رسائل النساء في العصرين الإسلامي والعباسي على صور تنطوي على ظرف وفكاهة وخفة روح، والفكاهة من أمضى أسلحة الإصلاح الاجتماعي وإذا انطوت الفكاهة على صادق حكمة أو نافذ نظرة، وأودعت العبارة المحكمة اللائقة بها كانت في الفرد دليل صفاء الذهن ولطافة الحس، وفي الأدب مظهر الرقي والحيوية، وفي الأمة عنوان التحضر ورقة الطبع، والفكاهة عند ذلك لا تقل مكانة عن أرزن الجد، بل ربما بذّته وكانت مرآة لميول الفرد والمجتمع أصدق تصويرًا من مرارة الجد الخالص.

ومن أظهر مواضع الفكاهة في العربية التبرم بالثقلاء، والنيل من البخلاء، ووصف الأكولين والمتطفلين والتهكم بمدعي العربية من الموالي وعبث المجان بالمخنثين المتورعين.... (١).

ومن نماذجها ما كتبته قينة إلى بشار بن برد- وكان يهواها- ردًا على ما كتبه إليها من بيت ادعاه لنفسه يقول فيه(٢):

هل تعلمين وراء الحب منزلة ∴ تدني إليك فإن الحب أقصاني

فكتبت إليه:

نعم أقول: وراء الحب منزلة ∴ حب الدنانير يدني كل إنسان

من زاد في النقد زدنا في مودته ∴ لا نبتغي الدهر إلا كل رجحان

وجاء في نهاية الأرب عن أبي العيناء قوله: خطبت امرأة فاستقبحتني، فكتبت إليها:

فإن تنفري من قبح وجهي فإنني ∴ أريب أديب لا غبي ولا فُدم

فأجابتني: " ليس لديوان الرسائل أجيبك"(٣).

وهذا ثمامة العوفي يخطب امرأة فتسأله عن حرفته فيكتب إليها(٤).

---

(١) في الأدب المقارن ومقالات أخرى/ فخري أبو السعود، ص٦١ وما بعدها. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن سلسلة الألف كتاب الثاني ٢٧٨ نافذة على الثقافة العالمية.

(٢) أشهر قصص العشاق والمتيمين/ محمد إبراهيم سليم/١٦٢.

(٣) نهاية الأرب في فنون العرب/ شهاب الدين النويري ص٢١ السفر الرابع/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

(٤) السابق نفس الصفحه.

وسائلة عن حرفتي قلت حرفتي ∴ مقارعة الأبطال في كل مأزق
وضربي طلي الأبطال بالسيف مُعلم ∴ إذا زحف الصفان تحت الخوافق
إذا القوم نادوني نزالا رأيتني ∴ أمام رعيل الخيل أحمي حقائقي
أصبِّر نفسي حين لا حُرُ صابر ∴ على ألم البيض الرقاق البوارق

**فلما قرأت الرسالة قالت للرسول ارجع وقل له فديتك أنت أسد فاطلب لك لبؤة فلست من نسائك وأنشدته تقول:**

ألا إنما أبغي جوادا بماله ∴ كريما محياه كثير الصّدائق
فتى همُّه مذ كان خوْد خريدة ∴ يعانقها في الليل فوق النمارق

**وذكر ابن خلكان[1] أنه كان بـ(أصبهان) رجل حسن النعمة، واسع النفس، كامل المروءة يقال له سماك بن النعمان وكان يهوى مغنية من أهل (أصبهان) وهبها عدة من ضياعه وكتب على نفسه كتبا بذلك، حملها إليها على بغل، فشاع الخبر وتحدث به الناس وكَبِّروا الخبر وكان بأصبهان رجل متجلف بيّن الركاكة يهوي مغنية أخرى فلما اتصل به ذلك ظن بجهله وقلة عقله أن سماكا إنما أهدى لأم عمرو جلودًا بيضاء، لا كتابة فيها وأن هذا من الهدايا التي تستحسن ويجل موقعها عند من تُهدى إليه فابتاع جلودًا كثيرة، وحملها إلى عشيقته على بغلين فلما وصلتها ووقفت على جليّة الأمر... تغيظت عليه وكتبت إليه رقعة تشتمه وتحلف أنها لا تكلمه، وسألت بعض الشعراء أن يعمل لها أبياتًا في المعنى ففعل وهذه هي الأبيات[2]:**

لا عاد طوعك من عصاك ∴ وحُرمت من وصلي مُناكا
فلقد فضحت العاشقين ∴ بقبح ما فعلت يداكا
أرأيت من يهدي الجلو ∴ د إلى عشيقته سواكا
وأظن أنك رمت أن ∴ تحكي بفعلك ذا سماكا
ذاك الذي أهدى الضيا ∴ ع لأم عمرو والصكاكا

(١) وفيات الأعيان ٥/ ٣٨٠ والعود الهندى عن امالى في ديوان الكندي/ابن عبيد الله /١٠/٩٨٩
(٢) من مجزوء الكامل، العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي ابن عبيد الله ص ٩٨٩/ ١٠.

فبعثـــــت منتنـــــة كـــــأ ∴ نـــك قـــد مســـحت بهـــن فاكـــا
مـــن لـــي بقربـــك يـــا رقـــي ∴ ع ولســـــتُ أهـــــوى أن أراكـــــا
لكـــــن لعلـــــي أن أقـــــا ∴ طـــع مـــا بعثـــت علـــى قفاكـــا

وهذا محمد بن كناسة يقول يومًا لبعض أصحابه" أعرفكم شـيئا مـن فهـم دنانير يعني جاريته قلنا نعم فكتب إليها إنك أمة ضعيفة ورهاء[١]. خرقاء فإذا أتاك كتابي هذا فعجلي جوابي فكتبت إليه: قد ساءني عند أبي الحسن وأن أعيا العـي: الجواب عما لا جواب له والسلام[٢].

وعلى هذا النحو كانت الجواري والقيان في هذا العصر من العوامل الفعالـة في انتشار الظرف والرقة في المجتمع العباسي حتى أصبحا سمتين بارزتين فيـه وبذلك رقّت المشاعر والأحاسيس والأذواق وأرهفت إرهافًا شديدًا[٣].

ــ تصور بعض الرسائل انغماس بعض خلفاء بني العباس والأمراء وعليـة القوم في اللهو والعبث وما يستلزمه من مجالس الشراب والسمر والغناء، ومـن هذه الرسائل ما روي عن ابن عبد ربه الأندلسي عن أبي الحسـن قولـه: "كـان الواثق إذا شرب وسكر رقد في موضعه الذي سكر فيه، ومن ندمائه تـرك ولـم يخرج، فشرب يوما فسكر ورقد وانقلب أصحابه إلا مغنيا أظهر التراقد وبقيت معه مغنية للواثق، فلما خلا المجلس وقع المغني في سحاءة[٤] ودفعها إليها :

إنـــي رأيتـــك في المنـــام كـــأنني ∴ مترشـــف مـــن ريـــق فيـــك البـــارد
وكـــأن كفـــك في يـــدي وكأنمـــا ∴ بتنـــا جميعـــاً في فـــراش واحـــد
ثـــم انتبهـــت ومنكبـــاك كلاهمـــا ∴ في راحـــتي وتحـــت خـــدك ســـاعدي

فأجابته :

خـــيراً رأيـــت وكـــل مـــا أبصـــرته ∴ ســـتناله مـــني بـــرغم الحاســـد

(١) يقال امرأة ورهاء اليدين: أى خرقاء .
(٢) الإماء الشواعر/ أبو الفرج الأصفهاني ص١١.
(٣) العصر العباسي الأول/ شوقي ضيف/ ١٥/ دار المعارف/ ط العاشرة.
(٤) السحاءة بالكسرة ، جِلْدٌ رَقِيقٌ نَاعِمٌ،

وتبيت بين خلاخلي ودمالجي[1] ∴ وتحل بين مراشفي ومجاسدي
فنكون أنعم عاشقين تعاطيا ∴ ملح الحديث بلا مخافة راصد

فلما مدت يدها لترمى إليه بالسحاءة رفع الواثق رأسه فأخذ السحاءة من يدها وقال لهما :

ماهذه؟ فحلفا له أنه لم يجر بينها قبل هذا كلام ولا كتاب ولا رسول غير اللحظ، إلا أن العشق خامرهما. فأعتقها وزوجها منه، فلما أشهد له وتم النكاح، أقامها الواثق بمحضر المغني إلى بيت من بعض البيوت، فوقع عليها ثم خرج إليه فقال له: أردت أن تكشخني[2] فيها وهي خادمتي، فقد كشختك فيها وهي زوجتك[3]

وهاهي عائشة بنت الخليفة المعتصم "محمد بن هارون الرشيد" ــ و كانت أديبة شاعرة ــ كتب إليها عيسى بن القاسم بن محمد بن سليمان أن توجه إليه جاريتها وكان يهواها.

كتبت إليك ولم أحتشم ∴ وشوق المحبين لا ينكتم
صبوحي في السبت من عادتي ∴ على رغم أنف الذي قد رغم
وعيشي يتم بمن تعليمي ∴ ن وإن غاب عن ناظري لم يتم
فمنّي عليّ بتوجيهها ∴ بتربة[4] سيدك المعتصم

وتذكر كتب الأدب أنها قد أنفذتها وكتبت إليه الأبيات الآتية:

قرأت كتابك فيما سألـ ∴ ـت وما أنت عندي بالمتهم
أتتك المليحة في حلة ∴ من النور تجلي سواد الظلم
فخذها هنيئا كما قد سألت ∴ ولا تشك شكوى امرئ قد ظلم
ولا تحبسنها لوقت المبيـ ∴ ـت كما يفعل الرجل المغتنم[1]

(١) الدُّمْلُجُ ، والدُمْلُوجُ : سوارٌ يحيط بالعضد
(٢) الكشخان : الديوث . معرب ويقال للشاتم لا تكاشخ فلانا
(٣) العقد الفريد. دار الكتاب العربي جـ٦ صـ٦٣
(٤) التربة :الجَبَّانة والمقبرة

(١) نزهة الجلساء في أشعار النساء/ السيوطي ص ٧ تحقيق صلاح الدين المنجد/ دار سوسة/ تونس، والوافي بالوفيات للصفدي.

# الحكمة والمثل

ــ احتوت رسائل النساء على الكثير من الحكم والأمثال. والحكمة تمثل خلاصة تجارب من صدرت عنه فهي تعكس نظرته إلى الحياة بصورة موجزة و مركزة بليغة ، من ذلك قول عائشة- رضي الله عنها- في كتابها إلى معاوية " فلا يغرنك يا معاوية حلم الله عنك فيزيدك استدراجًا فإنه بالمرصاد وإنما يعجل من يخاف الفوت"(١) – فجملة (إنما يعجل من يخاف الفوت) بمثابة الحكمة.

ومن الحكم الواردة في ثنايا الرسائل ما كتبته أم خالد بن عبد الله القسري في رسالة له "واعلم يا بُني أن كل ذنب مع الدم أمم"(٢)

ومن ذلك قول دنانير جارية محمد بن كناسة في كتاب إليه" إن أعيا العي الجواب عما لا جواب له، والسلام(٣).

ومن نماذج الحكمة ما جاء في رسالة جارية إلى من يحبها وقد عاتبها في تخريق قرطاسه(٤).

واشقق كتاب الذي تهواه مجتهدا ∴ فرب مفتضح في حفظ قرطاس

فجملة (ربّ مفتضح في حفظ قرطاس) بمثابة الحكمة .

ومن الحكمة ما كتبته فضل إلى سعيد بن حميد معاتبة(٥):

ويحك إن القيان كالشرك المنصوب ∴ بين الغرور والعطب

وكثيرا ما يكون مفجر الحكمة موقفا تعرض له الكاتب فأثّر فيه وآلم خاطره فأنطقه الموقف بالحكمة ومن ذلك ما كتبته الخيزران إلى كاتب لها ردًا على رسالة وردتها منه "... واعلم أنه قل شيء لم يزد إلا نقص والنقصان يمحق الكثير كما ينمى على الزيادة القليل"(٦).

---

(١) جمل من أنساب الأشراف.
(٢) بلاغات النساء / أحمد بن أبي طاهر بن طيفور/ ١٠٤
(٣) الإماء الشواعر/ ١١ .
(٤) الإماء الشواعر/ ٢٥ .
(٥) الإماء الشواعر/ ٢٨ .
(٦) الوزراء والكتاب الجهشياري / ٢٢١ .

**هذا وإن كان قد احتوت رسائلها على الحكمة فقد احتوت على العديد من الأمثال سواء من إنشائها أو إنشاء غيرها، وهذه الأمثال تعكس الموقف الآني لها، وتدل على قدرة فنية لديها تمثلت في إنشاء المثل أو استدعائه نظرا لما يتطلبه الموقف، ومما جاء في رسائلها من أمثال قول هند بنت النعمان في رسالة إنذار.**

**ألا أبلغ بني بكر رسولا ∴ فقد جدَّ النفير بعنقفير**

**فالشطر الثاني بمثابة المثل ويدل على اشتداد الأمر وعظم الخطب.**

**ومنه ما جاء في رسالة السيدة عائشة إلى السيدة حفصة- رضي الله عنهما- تخبرها بنزول علي ﷺ "ذي قار". "أما بعد فإني أخبرك أن عليا قد نزل ذا قار، وأقام بها مرعوبا خائفا لما بلغه من عُدتنا وجماعتنا، فهو بمنزلة الأشقر إن تقدم نحر وإن تأخر عُقر"(١).**

**ومن المثل في العصر العباسي ما جاء في رسالة أم الشريف إلى المعتضد بالله(٢).**

**يا بهجة الدنيا وبدر ملوكها ∴ هب ظالمي ومفسدي لمصلح**

**فالشطر الثاني من البيت بمثابة المثل.**

**ومنه قول العباسة بنت المهدي في كتابها إلى وكيل لها يسمى سباع(٣).**

**أتسلبني مالي فإن جاء سائل ∴ رققت له أن حطه نحوك الفقر**

**كشافية المرضى بفائدة الزنى ∴ تؤمل أجرًا حيث ليس لها أجر**

**وبعد، فقد عبر كل من المثل والحكمة عن نفس قلقة طموح تنشد الاستقرار النفسي وتسفر عن الرغبة في الأمن، ومن الجدير بالذكر أنهما كانا أكثر دورانا في رسائل المرأة العباسية عنها في رسائل العصر الإسلامي و لعل مرد ذلك قصر المدة التي حكم فيها بنو أمية، كما أن معظم الحكم والأمثال في العصر العباسي**

---

(١) جمهرة رسائل العرب / العصر الجاهلي وصدر الإسلام/ ٣٣٢ نقلا عن شرح ابن أبي الحديد م ٣/ ٢٩٢.
(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر/ ابي الحسن علي بن الحسين المسعودي ج ٢/ ٢٨٧ .
(٣) نزهة الجلساء في أشعار النساء/ السيوطي/ ٦٦/ دار القرآن/ بولاق،الكترونية/.

كانت تختص بالجانب الغزلي، كما كانت تصدر معظمها عن جوار وقيان لا عن حرائر وهذا يدل على ما حصلت عليه الجواري من قدر لا بأس به من الثقافة فقد حرصن على تعليم أنفسهن ليكن ذوات حظوة عند الخلفاء والولاة وعلية القوم. وهي حكم تتسم بالسهولة ووضوح التراكيب كما أنها قليلة الابتكار.

_ أن معظم رسائلها كتب على البديهة دون تريث أو تصنع، ويفرق بن رشيق بين البديهة والارتجال بكون البديهة "لابد فيها من الفكرة والتأيد والارتجال ما كان انهمارا وتدفقا لا يتوقف فيه قائلة"(١).

والدلائل على غلبة البديهة على رسائلها أكثر مما يحصيه العد ونكتفي بسوق بعض النماذج التي تؤكد صحة القول.

فقد جاء في روضة المحبين أن أحد الأشراف اجتاز مقبرة وإذ بجارية حسناء عليها ثياب سوداء فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها:

قد كنت أحسب أن الشمس واحدة ∴ والبدر في منظر بالحسن موصوف
حتى رأيتك في أثواب ثاكلة ∴ سود وصدغك فوق الخلد معطوف
فرحت والقلب مني هائم دنف ∴ والكبد حرى ودمع العين مزروف
ردي الجواب ففيه الشكر واغتنمي ∴ وصل المحب الذي بالحب مشغوف

ورمى بالرقعة إليها فلما قرأتها كتبت(٢).

إن كنت ذا حسب زاك وذا نسب ∴ إن الشريف بغض الطرف معروف
إن الزناة أناس لا خلاق لهم ∴ فاعلم بأنك يوم الدين موقوف
واقطع رجاك لحاك الله من رجل ∴ فإن قلبي عن الفحشاء مصروف

ومع ما تدل عليه الرسالة من قدرة على البديهة وما أخذت به المرأة نفسها من العفة والصون تدفعنا إلى الشك في حقيقة القصة فهل كانت المرأة المكلومة تحمل معها إلى المقبرة أدوات كتابة أم ترك المرسل مع الرسالة أدواتها؟؟

(١) العمدة/ ١/ ١٨٩- دار الجيل بيروت.
(٢) ابن قيم الجوزية ص٦٠١.

**وهذا يكشف عن موهبة فطرية لدى العديد من النساء لم تعن بهن الدراسة، يصور هذا من بعض الوجوه ما رواه أبو المجد الشيباني عن ريم جارية إسحق بن عمرو السلمي(١)، كانت شاعرة مجيدة، امتحنها أبو اليدين بن عبد الرحمن وكتب إليها:**

ألا من لعين لا يرى أسود الحمى ∴ ولا ناظر الريان إلا استهلت

طروب إذا حلت لجوج إذا بكت ∴ فأدقت في الهوى وأجلت

**فكتبت في الجواب على ظهر الرقعة:**

فليس مدنيه البكاء من الحمى ∴ وإن كثرت منه الدموع وقلت

يحن إلى أهل الحمى فدموعه ∴ تسح كما سحت سماء تدلت

**فلم يصدق أن الشعر لها فكتب إليها شعرا لجحاف لا يعرفه أحد وهو.**

كيف المقام بأرض لا أشد بها صوتي ∴ إذا ما اعترتني سورة الغضب

**فكتبت في الجواب:**

ما إن يطيب مقام المرء في بلدٍ ∴ فيه يخاف ملمات من العطب

فاحلل بلاد أناس لا رقيب بها ∴ فما يطيب لمر عيش مرتقب

(١) المذاكرة في ألقاب الشعراء ١٣٩، ١٤٠- انظر المكتبة الشاملة، الكتاب مرقم آليا.

# الإيقاع والموسيقى

ربط الكثير من النقاد بين أفكار الشاعر وبين موسيقى شعره فالأستاذ حسني عبدالجليل يقول(١): "إن خير الموسيقى ما تتمشى مع الأفكار وتتناسق مع المعاني وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات النفس، فالشاعر في اهتياجه وغضبه وغيظه يكون تعبيره عالي النغمة ، وفي حزنه منخفضا وفي تعجبه وفرحه وهدوئه واطمئنانه تكون مسافاته الصوتية طويلة، وهكذا لتساير النغمات حالات النفس كما تساير موضوع القصيدة وفكرتها، ويرى د/علي صبح(٢): "أن الموسيقى عنصر أساسي في الصورة الأدبية وركن أصيل فيها، تعتمد عليه بحيث إن تجردت منها الصورة فقدت قيمتها، وبالإيقاع في الصورة يكتمل الشكل الفني لها وللصوت المنغم دور فاعل في التأثير في النفس واستقطاب كل منافذ الإدراك ومعابر الوعي المختلفة من عقل وحواس وعاطفة ووجدان".

وبالاستقصاء للرسائل الشعرية عند المرأة في العصرين الإسلامي والعباسي تبين أن جلها نظم في البحور التقليدية للقصيدة العمودية القائمة على وحدة الوزن والقافية، وكان بحر الكامل أكثر البحور دورانا في شعرها ثم الطويل ثم البسيط ثم الوافر ثم الرجز ثم السريع ثم الرمل فالمتقارب ومن المعروف أن بحر الكامل " أكثر بحور الشعر جلبة وحركة وفيه لون خاص يجعله فخما جليلاً مع عنصر ترنيمي ظاهر، وصلصلة كصلصلة الأجراس ونوع من الأبهة ودندة تفعيلاته من النوع الجهير الواضح الذي يهجم على السامع مع المعنى والعواطف والصور حتى لا يمكن فصله عنها بحال من الأحوال"(٣).

وأغلب رسائلها الشعرية نظمت على البحور التامة والأمثلة على ذلك كثيرة منها كتاب جارية تزوجها خالد بن الوليد، إلى عبد الملك بن مروان وفيه تقول:

يا ابن الذوائب من أمية والذي ∴ صارت إليه خلافة الجبار

(١) موسيقى الشعر العربي / ٢١/ الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة ١٩٨٩م.
(٢) البناء الفني في الصورة الأدبية / ٢٤١، المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
(٣) موسيقى الشعر العربي /حسني عبدالجليل/ ٢١ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩م.

فـــبم اســـتفزك خالـــد بحديثـــه ∴ حتـــى هممـــت بـــأن تـــرى أطمـــاري

والقصيدة من الكامل التام. ومنه ما كتبته إحدى الجواري إلى الفضـل بـن يحيى البرمكي وفيه تقول:

كـــن لـــي هـــديت إلى الخليفـــة ســـالما ∴ بوركـــت يـــا ابـــن وزيـــره مـــن ســـلم

حـــث الإمـــام علـــى شـــرائي وقـــل لـــه ∴ ريحانـــة ذخـــرت لأنفـــك فاشـــم

وغلبة البحور الممتدة والأوزان الطويلة على رسائل المرأة يتناسب وشـدة الحزن، وكل ما يتصل به من الفشل والعجز والشعور بالضعف والعوز، فـالمرأة مجبولة على سرعة التقلب وسرعة تغيّر الحالة المزاجية، فقد اختارت الشـاعرة لقصيدتها بحر الكامل وتفعيلاته متفاعلن ست مرات، ثلاثة في كل شطر وهو من البحور الطويلة التي تتسع لتصوير حالة القلق التي تعيشها كما وفّقت في اختيار قافية مطلقة وروى متحرك ناسب الغرض من التجربة فقد خرجت أنفاس الشاعرة قلقة مضطربة حزينة بائسة ضائقة.

ولعل إيثار المرأة للأوزان الطويلة لكونها أكثر ملاءمة لجو الحزن والقلق الـذي تعيشه، كما تساعدها في حشد كثير من المعاني التي تريد التعبير عنها.

وتارة تميل إلى النظم في المجزوء من البحور كما تميل إلـى الخفيـف مـن الأوزان.

استمع إلى إحدى الجواري ترد على رسالة من هويها،من مجزوء الهزج:

بنفســـــي أنـــــت مـــــن قـــــال ∴ و بالأهـــــــــل وبالمـــــــــال

إذا مـــــا كنـــــت أرعـــــى لـــــ ∴ ك حبيـــــــك وترعـــــى لـــــي

ولم تســـــــأل مـــــــن واشٍ ∴ فمـــــا الشـــــكوى إلى الـــــوالي

وأخرى تقول من مجزوء الخفيف .

إن نفســـــــي فاعـــــــذرنها ∴ أصـــــــبحت في راحتيـــــــه

رحـــــــم الله رحيمـــــــا ∴ دل عـــــــيني عليـــــــه

وهاهي فضل تعتذر لسعيد بن حميد بأسلوب عذب، من مجزوء الكامل:

يـــا مـــن أطلـــت تفرســـي ∴ في وجهـــــه وتنفســـــي

الويـــــل مـــــن متـــــدلل ∴ يزهـــــى بقتـــــل الأنفســـــي

هـــبني أســـأت ومـــا أســـأ ∴ ت بلـــى كـــإقرار المســـي

**ونلاحظ أن استخدام المرأة للبحور المجزوءة والأوزان الخفيفة يأتي غالبًا في مواضع الشكوى والعتاب والاعتذار، لكون هذه الأغراض تتطلب الرقة في الألفاظ، وخفة الوزن، وعذوبة الإيقاع، هذا من ناحية، وأن هذه الأوزان تتناسب والمقدرة الفنية للمرأة، وفالمرأة غالبا تفتقر إلى الصقل وكثرة الدربة، فقلة الرواء وضحل الشاعرية الجأ المرأة إلى الأوزن الخفيفة والمجزوء من البحور من ناحية أخرى .**

**ووقفت المرأة على قيمتي الترصيع والتصريع وأنهما يزيدان في موسيقى الشعر فحرصت على توظيفهما في رسائلها والترصيع من خواص الوزن وأما التصريع فمن خواص القافية، وقد أجادت المرأة استخدام كلا النوعين فقد حسنا في موضعهما فجاءا سمحا في غير كلفة.**

**والترصيع هو أن تأتي مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به في لفظة أو لفظتين والترصيع يكسب الشعر نغما وإيقاعا موسيقيا جميلا(١).**

**ومن أمثلته قول عمرة بنت عبد الله بن رواحة تخاطب هند بنت عتبة مفاخرة(٢):**

ياهنـد مهـلا لقـد لاقيـت مهبلـة ∴ يـوم الأعنـة والأرواح في الـراح

أسـد غضـارفة غـرّ جحاجحـة ∴ أبنـاء محضـة بـيض لجحجـاح

**فقد أتت باللفظين الأول والثالث في البيت الثاني مسجوعتين، ثم أتت بالتالي لكل منهما كذلك.**

**أما التصريع فهو: أن تأتي عروض البيت مماثلة للضرب في وزنه ورويه. ولا نبالغ إذا قلنا: إن التصريع يعد على رأس الظواهر الموسيقية في رسائل**

---

(١) يعرف الإيقاع الموسيقى بكونه: ترديد لنظام متواصل ويرتبط الإيقاع أساسًا بالجانب الصوتي والإيقاع وسيق الصلة بالجانب الانفعالي للإنسان وقد أشار بعض العلماء إلى أن كل انفعال له عبارة إيقاعية تعبر عنه ، ووظيفة هذا الإيقاع هي استنفاد الطاقة الشعورية ، وهو جزء من دلالة التعبير. انظر: نظرية المناسبة الإيقاعية في القافية/ حازم علي كمال الدين- الأولى ٢٠٠٧م مكتبة الآداب.

(٢) المحاسن والأضداد ، الجاحظ ، ١٢٥، مكتبة العرفان .

النساء الشعرية ولعل وقوف المرأة خاصة الجواري والقيان على ما يحدثه التصريع من نغم موسيقى وإيقاع مناسب يكشف عن الجانب الانفعالي عندها وراء هذه الكثرة، ولا يفوتنا أن ننوه على حرص النخاسين على تعليم الجواري أصول النغم وما به يتحقق حسن الإيقاع و النغم.

ومن أمثلته ما كتبته عنان جارية الناطفي إلى جعفر بن يحيى[١]:

يا لائمي جهلاً ألا تقصر ∴ من ذا على حُرِّ الهوى يصبر

لا تلحني أني شربت الهوى ∴ صرفا فممزوج الهوى يسكر

وأخرى تكتب إلى رجل مال إلى قينة:

يا حسن الوجه سيء الأدب ∴ شبت وأنت بغلام في اللعب

والأبيات المصرعة في رسائل المرأة جاءت سمحة طبيعية لا كلفة فيها ، لذا استحسنت في موضعها.

كما وفقت إلى حد كبير في اختيار ألفاظ القافية فجاءت مناسبة وموافقة لما شرطه بعض أهل العروض من ضرورة "أن تكون جيدة في ذاتها سلسة المخرج ليست غريبة ولا متكلفة ولا زائدة، وأن تكون ملائمة لما عليه سائر معنى البيت بأن يكون أول البيت شاهدًا بقافيته، فإذا عُرف أوله عرف آخره وبانت له قافيته[٢].

ومما ينبغي التنبيه عليه- فيما يخص القافية- وقوع التضمين في الكثير من رسائل المرأة الشعرية والتضمين هو تعلق قافية البيت بما بعده بحيث تفتقر إليه في أصل الإفادة وهو من عيوب القافية [٣].

ومن أمثلته في رسائلها ما كتبته ليلى إلى ابن عم لها[٤]:

تعسًا لمن بغير ذنب يصرم ∴ قد كنت يا صخر زمانا تزعم

أنك مشغوف بنا متيم ∴ حتى بدا منك لنا المجمجم

(١) الإماء الشواعر/ أبو الفرج الأصفهاني/١١، ١٣

(٢) العروض القديم / محمود علي السمان ٣٢٢/ دار المعارف ١٩٨٤م، بتصرف.

(٣) السابق / ٢٥٥.

(٤) المرأة في الشعر الجاهلي / أحمد الحوفي / ١٦٠/ دار الفكر العربي/ الثانية.

**ومنه ما كتبته العباسة بنت المهدي إلى وكيل لها قائلة [١]:**

ألا أيهـــذا الراكـــب العـــيس بلغـــا ∴ ســـباعا وقـــل إن ضـــم داركـــم الســـفر

أتســـلبني مـــالي فـــإن جـــاء ســـائل ∴ رققـــت لـــه أن حطـــه نحـــوك الفقـــر

**وكانت المرأة في العصر الإسلامي أكثر وقوعا في عيب التضمين منها فـي العصر العباسي بنسبة ٦:٢ بدا ذلك من المسح الشامل للرسائل.**

**وجاء حرف الروي في الرسائل الشعرية عند المرأة علـى أكثـر حـروف الهجاء بيد أن بعضه كان أكثر دورانا من بعض وكان حرف الراء أكثر حـروف الهجاء دورانا يليه القاف ثم الميم ثم الكاف والدال.**

**وقوافي رسائل النساء جاءت في أغلبها مطلقة والقليل منهـا جـاء مقيـدا والقافية المقيدة هي التي يكون فيها حرف الروي ساكنا ومن أمثلتها مـا كتبتـه عائشة بنت المعتصم إلى عيسى بن القاسم.**

قـــرأت كتابـــك فيمـــا سألـــ ∴ ت ومـــا أنـــت عنـــدي بـــالمتهم

أتتـــــك المليحـــــة في حلـــــة ∴ مـــن النـــور تجلـــي ســـواد الظلـــم

ولا تحبســـــنها لوقـــــت المبيـــــ ∴ ت كمـــا يفعـــل الرجـــل المغتـــنم

**وكثر في رسائل النساء الشعرية التدوير. والأمثلة على ذلك كثيـرة منهـا أبيات عائشة بنت المعتصم السابقة ومنها قول إحداهن[٢]:**

لو كنت أعلم أن نفسك في المحبة صادقة.

لدنوت منك ولو علوت إلى الجبال الشاهقة.

ولهان عندي قول ساع ناطق أو ناطقة.

**على رأس الظواهر الموسيقية في رسائل النساء الشعرية "وحـدة الـوزن والقافية بين رسالة كل من المرسل والمرسل إليه، فإذا كانت رسالة المرسل علـى وزن الطويل وقافيتها الراء مثلا نجد جوابهـا علـى وزن الطويـل وقافيـة الـراء أيضا،وإذا كان ذلك من جملة الظواهر عندها فهي سمة مشتركة في أغلب الرسـائل**

---

(١) نزهة الجلساء في أشعار النساء / السيوطي / ٦٦/ دار القرآن / بولاق.
(٢) الإماء الشواعر/ أبو الفرج الأصفهاني ص٥.

عموما، وما من شك في أن وحدة الوزن والقافية في الرسائل يحدث نغما موسيقيا جميلا وانسجاما في السمع وإيقاعا رائعا بين الأبيات وتجاوبا شعريا بين المنشئ والمتلقي.

ونسأل أنفسنا هل هذه الوحدة دليل تكلف وسمة تعمل، في رأي الباحث أن هذه الظاهرة تدل على لون من التعمّل والتكلف ولزوم مالا يلزم. ولعل أبرز ما دفع المجيب إلى هذا إظهار مقدرته الشعرية وتفوقه الأدبي.

ومن أمثلة ذلك، ما أثر عن مراد جارية علي بن هشام فقد انصرفت عن مولاها وهجرته فكتب إليها(١):

فإن كان هذا منك حقا فإنني ∴ مداو الذي بيني وبينك بالهجر

ومنصرف عنك انصراف ابن حرة ∴ طوى ودّه والطي أبقى من النشر

فكتبت إليه:

إذا كنت في رقى هوى وتملك ∴ فلابد من صبر على مضض الصبر

وإغضاء أجفان طوين على قذى ∴ وإذعان مملوك على الذل والقسر

وذلك خير من معاداة مالك ∴ صبور على الإعراض والصد والهجر

فالرسالتان من بحر الطويل وقافية الراء.

وإذا قمنا بموازنة بين الرسالتين فالرسالة الثانية أكثر تفننا من الأولى إذ احتوت على نكات بلاغية أكثر من الأولى فالبيت الثاني احتوى على كناية فالشطر الأول كناية عن الخضوع والانكسار للمحبوب كما حوى مطابقة لطيفة بين إغضاء و(إذعان، ونلاحظ أن جملة وإذعان مملوك على الذل والقسر احتوت على ترادف بارع أيضًا، والبيت الأخير احتوى في شطره الثاني على ترادف ومزاوجة بارعتين أيضًا، وتكاد جميع الرسائل الغرامية تنحو نفس هذا المنحى الفني.

(١) الإماء الشواعر/ أبو الفرج الأصفهاني ص٣٣.

# الخاتمة

وبعد هذا العرض لرسائل النساء في العصرين الإسلامي والعباسي ، اتضح للباحث بعض النتائج لابد للدارس أن يسجلها حسب ما أتاحت له الدراسة، فمن هذه النتائج :

ـ أسهمت هذه الرسائل في تفجير قرائح العديد من النساء، فكانت مادة لتصوير التجارب والتعبير عن المشاعر ولولا ما بقى لنا من هذه الرسائل لضاعت هذه المادة الأدبية التي تعكس جانبا أو أكثر من حياة المرأة، ولما وقفنا على هذه القدرات الفنية الخلاقة لديها والتي فجرتها التجربة، كما كشفت عن موهبة فطرية لدى العديد منهن لم تعن بهن الدراسة .

ـ معظم رسائلها تحركت في أغراض ضيقة، وتناولت أفكارا تافهة ، حيث يغلب عليها الجانب الفردي الشخصي، كما تبدو فيها سذاجة الموضوع وتفاهة المعاني.

– ضياع عدد كثير من رسائل النساء، والنثرية منها خاصة، ولو بقى هذا الكم لشارك في إثراء ديوان المرأة وأكد امتلاكها لأدواتها وأبان عن تمكنها في الفن الأدبي.

– أوضحت الدراسة دور المرأة في نظم الشعر والنماذج الواردة في البحث ما هي إلا إرهاصات لبحوث جادة تنتظر من يهتم بها وينقب عنها في بطون الكتب لاستخراج نفائسها وعرضها ووضعها على بساط البحث والدراسة

ـ أن معظم رسائلها كتب على البديهة دون تريث أو تتصنع.

ـ تفاوتت أساليب النساء في رسائلهن فبينا يرقى بعضها إلى مستوى الأدب الرفيع ينحدر بعضها الآخر إلى مجرد ثرثرة كلامية لا طائل وراءها إلا من حيث فائدتها في تحليل الشخصية التي كتبتها.

ـ تتميزرسائل الحرائر في العصرين الإسلامي والعباسي بأنها أكثر فنية وأبلغ أداءّ وتصويرا للواعج الحب وأشد موجدةّ، وأبعد عن الغرامية من رسائل الجواري والقيان ، وهذا يؤكد على أن ما رأيناه من صور الخلاعة كان مبعثه الإماء والقيان الاتي زاد انتشارهن في العصر العباسي فالمرأة بعامة لم تكن أداة

لهو وعبث وتهتك فصور التهتك تختص ــ في معظمهــا ــ بطائفــة الجــواري والمغنيات.

ــ جل رسائل الجواري والقيان تنصب على وتصوير الهــوى و الغــرام ، بينما نجد رسائل الحرائر تدور في معظمها حول الشكوى والعتاب والاعتذار ،وهذا يؤكد أن الجواري قد أسهمن في التحلل الخلقي في العصر العباسي.

_ عكست دراسة رسائل النساء جملة من طبائع المرأة وصفات عرفت بهــا قديما وحديثا، تلك الصفات أشار إليها القرآن الكريم ونصت عليها السنة النبويــة المطهرة، ويجب أن نبادر بالقول أن ما أثر من رسائل عنها تعكس الكثيــر مــن صفاتها، تؤكد صحة نسبة الكثير من هذه الرسائل إليها، ولعل مــن أهــم هــذه الصفات، عظم كيدها، قوة حيلتها، شدة غيرتها.

– أن بعض الرسائل لم يكن من إنشاء النساء فأوعزت المرأة إلى من يكتب لها الرسائل ، كما أن بعض رسائل الرجال كان من إنشاء النساء .

وبعد.

فالقيم الحقيقية لهذه الرسائل تكمن في كونها تؤرخ للحركة النســائية فــي العصرين موضوع الدراسة لما تبرزه من العديد من ســمات شخصــية صــاحبة الرسالة ورغم ما نجده في كثير منها من تسطيح فكري تعكس واقعا اجتماعيا في الفترة التي كتبت فيها، كما أنها غنية بمضامينها، تلقي أضــواء علــى نفســية أصحابها، كما أن هذه الرسائل لا تخلو من نظرات اجتماعية وأدبية مفيدة.

والحمد لله أولا وأخيرا

المؤلف

١٢/ ٢٠١٥م

# ثبت بأهم المصادر والمراجع

## أولا: المصادر

- أدب النساء/ عبد الملك بن حبيب السلمي/ تحقيق عبد المجيد تركي الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- الاختيارين المفضليات والأصمعيات / الأخفش الأصغر/ تحقيق فخر الدين قبارة / دار الفكر العربي/ الأولى/ ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩م
- الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني/ ط بيروت.
- الإماء الشواعر/ أبو الفرج الأصفهاني/ مكتبة المصطفى الكترونية التصنيف/ قسم تراجم الشعراء.
- الأمالي أبو علي القالي/ط/ دار الجيل بيروت.
- الديارات/ الشباشتي/ تحقيق كوركيس عواد/ دار الرائد العربي بيروت- الثالثة ١٩٨٦م.
- الزهر الفاتح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح/ ابن الجوزي الجزء الثاني والعشرون.
- الزهرة/ أبي بكر محمد بن داود الأصبهاني / تحقيق د/ ابراهيم السامرائي و نودي حمود القيسي / الزرقاء الأردن / ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٥م
- الشكوى والعتاب وما وقع بين الخلان والأصحاب/ أبي منصور الثعالبي دار الصحابة طنطا- الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- الصناعتين أبوهلال العسكري/ علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم / المكتبة العصرية / بيروت ١٤١٩هـ
- العقد الفريد/ أحمد بن عبد ربه الأندلسي/ شرح أحمد أمين، إبراهيم الأبياري، عبد السلام هارون/ دار الكتاب العربي.
- العقد الفريد/ أحمد بن عبد ربه الأندلسي/ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة- الثالثة ١٩٦٥م الجزء الثالث.
- الكامل في التاريخ/ ابن الأثير/ دار الكتاب العربي بيروت/ السادسة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

- المحاسن والأضداد/ الجاحظ/ مكتبة العرفان/ مطبعة الساحل الجنوبي لبنان/ طبعة ١٨٩٨م.
ـ المحاسن والأضداد/ الجاحظ/ مكتبة ومطبعة دار الهلال/١٤٢٣هـ
- المذاكرة في ألقاب الشعراء/ أبو المجد الشيباني/ المكتبة الشاملة الجزء الأول.
- المستظرف من أخبار الجواري/ جلال الدين السيوطي/ تحقيق صلاح الدين المنجد/ دار الكتاب الجديد/ بيروت- الثانية١٩٧٦م.
- المصنف في الأحاديث والآثار/ أبو بكر بن أبي شيبة/ تحقيق كمال يوسف الحوت/ مكتبة الرشيد/ الرياض- الأولى ١٤٠٩م.
- الوافي بالوفيات/ صلاح الدين بن أيبك الصفدي/ تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى/ دار إحياء التراث بيروت ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- الوزراء والكتاب / الجهشياري / تحقيق مصطفى السقا ورفيقية/ مطبعة الحلبي مصر الأولى/ ١٩٣٨م.
- أمثال العرب/ المفضل الضبي/ محمد بن يعلي الضبي/ تحقيق إحسان عباس/ دار الرائد العربي بيروت لبنان- الأولى١٤٠١هـ/ ١٩٨١م الجزء الأول.
- بلاغات النساء/ أحمد بن أبي طاهر بن طيفور/ المكتبة الرضوية/ النجف١٣٦١هـ
- تاريخ الطبري/ أبو جعفر بن جرير الطبري/ اعتنى به/ أبو صهيب الكرمي ط/ بيت الأفكار الدولية الأردن.
- جمل من أنساب الأشراف /أحمد بن يحيى البلاذري/ تحقيق/ سهيل زكار ورياض الزركلي/ دار الفكر بيروت- الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- دلائل النبوة / أبي نعيم الأصفهاني/ تحقيق محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس/ دار النفائس بيروت- الثانية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة/ تحقيق محمد عبد الرحيم/ دار الراتب الجامعية بيروت لبنان- الأولى٢٠٠٨م.
- ديوان كثير عزة/ تحقيق إحسان عباس/ دار الثقافة بيروت١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

- ذم الهوى/ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي/ تحقيق مصطفى عبد الواحد الأولى ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.
- ذيل الأمالي والنوادر/ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- طبقات الشعراء/ ابن المعتز/ تحقيق عبد الستار فراج/ دار المعارف مصر١٩٧٧م.
ـ كتاب التحف والهدايا/ أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين/ الكتاب مرقم آليا الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة الباب الحادي عشر- جوجل مصر
- كتاب الدعاء/ محمد بن فضل الضبي/ تحقيق عبد العزيز البعيمي/ مكتبة الرشيد/ الرياض الأولى/١٤١٩هـ.
- مروج الذهب ومعاون الجوهر/ أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي المكتبة العصرية صيدا بيروت ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م جـ٢ .
- مسند عبد الرازق/ أبو بكر عبد الرازق بن همام الصنعاني/ تحقيق حبيب الأعظمي/ نشر المجلس الأعلى بالهند- الثانية١٤٠٢هـ الجزء الثاني.
- مصارع العشاق/ أبي محمد جعفر بن أحمد القارئ/ دار صادر بيروت لبنان.
- مصارع العشاق/ الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين القارئ طبعة الجوائب ١٣٢٠هـ.
- معجم البلدان/ ياقوت الحموي/ دار صادر/ بيروت الثانية١٩٩٥م- الجزء الرابع.
- ديوان كعب ابن زهير/ شرح الأستاذ / علي فاعور/ ص ٥ / دار الكتب العلمية بيروت ، لبنلن .
ـ ديوان الأرجاني ، ناصح الدين أحمد بن محمد المجلد الأول / ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ / شرح قدري مايو / دار الجيل بيروت / الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م .
- ديوان ابن زيدون، شرح د/ يوسف فرحات ، ص٢٤١/ دار الكتاب العربي ، بيروت ، الثانية ١٤١٥هـ ١٩٩٤م .
- معجم الأدباء/ دار الكتب العلمية بيروت لبنان الجزء الأول والثاني.

- نزهة الجلساء في أشعار النساء/ السيوطي / دار سوسة تونس تحقيق صلاح الدين المنجد.
- نزهة الجلساء في أشعار النساء/ السيوطي/ دار القرآن/ بولاق، الكترونية /التصنيف تراجم الشعراء /النوعية /Text
ـ نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية / جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي/ ٧٥/،دار الحديث ١٤١٥هـ/١٩٩٥م / الأولى

## ثانيًا: المراجع:

- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري /فايز عبد النبي فلاح القيسي /دار البشير للتوزيع/ عمان الأردن / الأولى١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م.
- أدب النساء في الجاهلية وصدر الإسلام محمد بدر معبدي مكتبة الآداب المطبعة النموذجية ١٩٨٣م.
- أسرار البلاغة/ عبد القاهر الجرجاني/ تحقيق محمد رشيد رضا دار المعرفة بيروت.
- أشهر قصص العشاق والمتيمين/ محمد إبراهيم سليم/ دار الطلائع للنشر القاهرة.
- أعلام النساء/ في عالمي العرب والإسلام /محمد رضا كحاله / مؤسسة الرسالة.
- أعيان الزمان وجبران النعمان في مقبرة الخيزران وليد الأعظمي مكتبة الرقيم ٢٠٠١م.
- الأدب في موكب الحضارة "كتاب النثر" دار الكتاب اللبناني بيروت- الثانية ١٩٧٤م.
- الأسلوب/ أحمد الشايب/ مكتبة النهضة المصرية١٩٩٠م.
- البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ/ محمد علي صباح المكتبة العصرية بيروت.
- الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار/ علي محمد الصلابي دار المعرفة بيروت لبنان- الأولى١٤٢٦هـ٢٠٠٥م.

- الظرفاء والشحاذون في بغداد وباديس/ بيروت لبنان.
- العصر العباسي/ شوقي ضيف/ العاشرة/ دار المعارف.
- العمدة/ ابن رشيق القيرواني/ دار الجيل بيروت.
- العمدة/ ابن رشيق القيرواني/ دار الطلائع القاهرة.
- الغزل في شعر العصر العباسي الأول/ عبد الهادي عبد النبي أبو علي- الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- القصة التاريخية الإسلامية في مصر د/ مسعد محمد الديب- الأولى١٩٩٨م القاهرة.
- المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها/ عبد الله عفيفي/ مطبعة دار المعارف بمصر- الثانية ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م الجزء الثاني.
- المرأة في الشعر الجاهلي/ أحمد الحوفي/ دار الفكر العربي- الثانية مطبعة المدني.
- النثر العربي ونماذجه د/ علي شلق/ دار العلم للملايين بيروت.
- النثر الفني في القرن الرابع الهجري د/ زكي مبارك.
- النثر الكتابي في العصر الأموي/ محمد فتوح أحمد/ مكتبة الشباب المنيرة/ القاهرة/١٩٨٧م.
- أيام العرب في الجاهلية/ محمد أحمد جاد المولى/ المكتبة العصرية صيدا بيروت١٩٦١م.
- بغية الإيضاح في تلخيص المفتاح/ عبد المتعال الصعيدي- الثامنة بدون تاريخ.
- جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة / أحمد زكي صفوت / المكتبة العلمية بيروت / العصر الأموي ، العصر العباسي الأول .
- حياة عائشة أم المؤمنين/ محمود شلبي/ دار الجيل بيروت لبنان- الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- عشاق العرب/ عبد المجيد زراقط/ دار البحار/ بيروت لبنان- الأولى١٩٨٧م.
- في الأدب المقارن/ فخري أبو السعود/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن سلسلة الألف كتاب الثاني/ نافذة على الثقافة العالمية.

- قصص العرب "العصر الجاهلي والإسلامي" إعداد إبـــراهيم شـــمس الـــدين دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- لسان العرب/ ابن منظور- دار المعارف.
ـ موسوعة المفاهيم الإسلامية العامـــة /٦٣٨/ط/ المجلـــس الأعلـــى للشـــؤون الإسلامية / مصر/ نسخة الكترونية / المكتبة الشاملة الكتاب مرقم أليا
- موسوعة أم المؤمنين عائشة- بنت أبي بكر د/ عبد النعـــيم الحفنـــي مكتبـــة مدبولي- الأولى ١٤٢٣هـــ/ ٢٠٠٣م.
- موسوعة روائع الأدب العربي/ محمد عبـــد الـــرحيم/ دار الراتـــب الجامعيـــة بيروت- الأولى ١٩٨٧م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب شهاب الدين أحمد بن محمد المقـــري التلمساني / تحقيق إحسان عباس / ح٢ ، ص٥٠٠ / الأولى ١٩٩٧ نقلا عـــن الزخيرة ق١ م ١ ص ١١
- نظرية المناسبة الإيقاعية في القافية د/ حازم علي كمال الدين- الأولى٢٠٠٧م مكتبة الآداب.

## الجرائد والمجلات

- آفاق ثقافية ومنشورات الهيئة العامة السورية للكتـــاب وزارة الثقافـــة مقـــال تأملات في رسائل الأدباء ص١٠٩
- مجلة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها يناير٢٠٠٩م المحرم ١٤٣٠هـــ العدد(١).
- مجلة قوافل عدد ٣ مارس ١٩٩٤م مقال بعنوان أضواء على أدب الرسائل عند المرأة.
- مقال أدب الرسائل في التراث العربي/ صالح بن رمضان ٢٨ يونيو ١٩٩٨م